March 8, 1969

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1, 1968, decided that all graduate students must include the following " Thesis Release Form " to appear on a seperate page of each thesis:

" THESIS RELEASE FORM "
American University of Beirut

I, NAHIDA FADLI DAJANI :

✓ authorise the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

☐ do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Signature

24/2/1970
Date "

Emile Rubeis
Assistant Registrar

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Death in the Novels of Najib Mahfouz

الموت في قصص نجيب محفوظ

by

Mrs. Nahida Fadli Dajani

(Name of Student)

Approved:

Prof. Muhammad Najm	Advisor
Prof. Mahmud Ghul	Member of Committee
Prof. Halim Barakat	Member of Committee
	Member of Committee

Date of Thesis Presentation: **15/2/1970**.

الموت في قصص نجيب محفـــوظ

رسـالة استاذ في الآداب

تقدمتهـــا

ناهدة فضلي الدجانـي

الدائرة العربية ـ الجامعة الأميركيـة

في بـــــيروت

شـباط ـ ١٩٧٠

مقدمـــة

يرتبط فن نجيب محفوظ بمجتمعه ،ارتباطا وثيقا ،فهو يلتزم في رواياته وقصصه ،عالمـــا تضطرب فيه كائنـات اجتماعية ،تنتمي الى قطاعـات محددة المعالم ،في مجتمع له موقعه المرسوم في الزمان والمكـان .

وتمثل هذه الكائنـات ،بمواقفها ،الانسان المصرى ،ابن الطبقة الوسطى ،القاطـــن القاهره ،بعد الحرب العالميـة ~~الثانية~~ الأولى وحتى أيامنـا .

يرافق نجيب محفوظ هذه الكائنـات في صراعها من اجل الحيـاة ،مرافقة تفصيلية ،تكـاد تصل الى حد المسح الاجتماعي الشامل ،المنبثق عن معرفة محسوسه بطبيعة الشعب ، وعـــن معايشة واعية لمشكلاته الحياتية ،وهمومه ،وتطلعاته . وفي رأينا ،انّ هذه الميزة الكبيره فـــي فن نجيب محفوظ ،ان هي الا حيلة بارعة ،للوصول الى اغوار النفس البشرية ،والكشف عـــن اسرار الوجود . فالهموم الاجتماعية التي تعايشها كائناته ،تتصل اتصالا حميما بالقضايـــا الميتافيزيقية الكـبرى – التي هي في الواقع الشغل الشاغل لكل فنان عظيم – قضايا الخـــير والشر ،والعدالة بمعناها الاشمل الاعم ،والحرية بمفهومها الكوني ،والمصير ،والفناء ،والمعرفة ، والفسـاد ،والسعادة ،والحـب ،والثـورة .

على هذين الخطين ، الخط الاجتماعي والخط الميتافيزيقي ،بنينا بحثنا هذا عـــن "الموت في قصص نجيب محفوظ" ،فدوّنا كل حادثة موت ،وقعت في اعماله الروائية والقصصية ، وحاولنا ان نعرف اسبابها ،وآثارهـا ،ونتائجها ،لنخلص الى مفهوم الفنان للموت .

انّ نجيب محفوظ ،يحدد مفهومه للموت ،ببساطة بالغة حين يقول : " الموت هو النهاية ٠٠ هو الفناء ٠٠ ولقد خرجت بدرس من تأملي للزمن والموت ،هو ان انظر اليهما بعين الانسان الاجتماعي لا الفردى ٠٠ هما امام الفردى مصيبة ٠٠ لكنهما امام الاجتماعي وهم ٠٠ أو لا شيء ٠٠ ماذا يفعل الموت بالمجتمع البشرى ؟ لا شيء ٠٠ ففي اية لحظة ستجد مجتمعا يعج بالملايين ٠" (١)

انّ هذا المجتمع البشرى ،الذى يعج بالملايين ،يتأثر بالموت ،ويؤثر فيه ،يتأثر به نفسيا ،واجتماعيا ،واقتصاديا ،لا سيما اذا كان مجتمعا له خصائص المجتمع المصرى ،في الفترة التي استقى منها نجيب محفوظ ،مادة رواياته وقصصه ،مجتمع الطبقة الوسطى بانتماءاته الدينية والعائلية ،فهو شديد التعلق بأهداب الدين ،مؤمن كل الايمان بقضاء الله وقدره ،وهو شديد التعلق بالاسرة ،ينضوى تحت لواء معيلها ،بآليه يفرضها التمييز بين المرأة العاجزة والرجل الجبار ،وبين طبقة الاغنياء الحاكمين ،وطبقة الفقراء المحكومين ٠

وهو مجتمع انتقالي ،يصارع التحكم الاجنبي ،والاقطاعية ،والرجعية ،والطبقية ،ليصل الى الاستقلال ،والحرية ،والاشتراكية ،وفي عملية الصراع هذه ،تسقط ضحايا ٠

والواقع كما يقول غالي شكرى "انّ مرحلة الانتقال هذه ،هي مرحلة محلية وعالميه في آن واحد ،وهو انتقال فكرى وحضارى معا ،لذلك كانت شخوص نجيب محفوظ واحداثه ومواقفه مزدوجة الوجوه والرموز والاغطيه ،لا تكتمل لك معرفة الوجه الا بجانبيه ،ولا تكتشف الرمز الا اذا فضضت العلامتين ،ولا تكشف الغطاء الا اذا خلعت الردائين ٠" (٢)

---

(١) شوشه ،فاروق — مع الادباء ،نجيب محفوظ — مجلة الآداب — العدد السادس ،حزيران سنة ١٩٦٠ — ص ١٩ ٠

(٢) شكرى ،غالي — نجيب محفوظ وازمة الانتماء الى الثورة — مجلة مواقف — العدد الخامس ، تموز سنة ١٩٦٩ — ص ١٦٦

أي ان شخوص نجيب محفوظ ، يحملون في حناياهم ، المشكلات الحياتية اليومية المنبثقة عن واقع بعينه ، الى جانب المشكلات الانسانية المطلقة .

لذلك قسمنا بحثنا عن الموت في اعمال نجيب محفوظ ، الى ثلاثة فصول : —

١ — وقع الموت في نطاق الاسرة والعلاقات الخاصة : وعنينا ان نبيّن اثر الموت ، النفسي ، والاجتماعي ، والاقتصادى ، في افراد الاسرة ، وفي المتأثرين مباشرة بهذا الموت ، كالمنتفعين بحدوثه ، اما ماديا ، او نفسيا .

٢ — الموت في نطاق المجتمع والعلاقات العامة : وعنينا ان نبيّن اثر المجتمع في الموت ، وكيف انه يدفع اليه ، اما بالقتل ، او الاغتيال ، او الانتحار ، او حوادث السيارات ، او التستر على المرض بداعي الجهل ، والخوف من الفضيحة ، والتشرد .

٣ — الابعاد الميتافيزيقية للموت : وعنينا ان نبيّن اثر الصدفه ، والقدر ، في حدوث الموت ، الى جانب الاستشهاد من اجل العدالة ، والحرية ، والمعرفة ، بمعناها الانساني المطلق .

واعتمدنا في الفصلين الاولين في الاكثر ، على اعمال نجيب محفوظ المرتبطة بحياة الطبقة الوسطى المصرية من " خان الخليلي " حتى " الثلاثية " . واما في الفصل الثالث ، فقد كانت قصص الواقعية الجديدة من " اولاد حارتنا " حتى " تحت المظلة " هي الاكثر اعتمادا . وحاولنا ان نستخلص موقف الكاتب ، وآراءه ، من خلال سياق الاحداث ، وتركيب الشخصيات ، ومثلها . واستنرنا بآراء النقّاد المنشورة في المجلات الادبية ، والفكرية ، وفي الكتب ، وبآراء الكاتب نفسه ، من خلال مقابلات اجريت معه .

هذا ويعود الفضل في استكمال البحث عناصره الاوليه ، الى توجيه الدكتور محمد يوسف نجم ، المشرف على هذه الاطروحة .

الفصل الأول

وقع الموت في نطاق الأسرة والعلاقات الخاصة

١ – موت الأب
٢ – موت الأم
٣ – موت الأولاد
٤ – موت الحبيب
٥ – الانتفاع من الموت

١ ـ موت الأب :

أ ـ وقعه .
ب ـ تقاليده الاجتماعيه .
ج ـ أثره النفسي .
د ـ أثره الاقتصادى والاجتماعي .

أ ـ وقعه :

يختلف وقع موت الأب عند افراد العائلة ، باختلاف جنسهم ، ذكورا أو اناثا، واعمارهم ، كبارا او صغارا ، او بحكم انتسابهم اليه ، فالابن ، غير البنت ، غير الزوجة ، غير الكنه .

حسن وحسنين ، الشابان الحدثان ، في رواية " بداية ونهايه " يرفضان فكرة موت والدهما الفجائي ، الا انهما بعد ان يريا الميت بعينيهما ، يرتميان على فراشه ويغرقان في نشيج حار . " حسين يبكي ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة ، استنزالا للرحمة ، وحسنين يبكي في جو من الخوف والذهول والانكار . وقف حيال الموت محتجا ثائرا ، ولكن في الوقت نفسه كان خائفا يائسا . ونفيسة الابنة الشابة ، اطلقت صواتا يهز حتى الاعماق ، وحين دخل اخواها الغرفة ، امسكت وارتمت على كتبه واخفت وجهها في مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء ". (١)

وحسن ، الابن الاكبر ، ذو الحياة المضطربة المستهترة ، جلس واجما حزينا ، واذا لم يكن حزنه كحزن اخوته ، " فمرجع هذا الى تقدمه عنهما في السن ، والى تمرسه

---

(١) بداية ونهاية ـ ص ٧ .

بالحياة حلوها ومرها ،ومرها على الأكثر ،الأمر الذى يلطف عادة من مرارة الموت.
ومع هذا كان يشعر بحرج شديد ،جعله يتوجس خيفة من شقيقيه ان يظنا بحزنه الظنون ،
لما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة ،الا انه كان اعظم ادراكا لحقيقة
الكارثة التي وقعت ،من اخوته ،فكيف تنقصه دواعي الحزن والأسف ؟ واهم من هذا ،
ان الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا في آل كامل بفضل الأم قبل كل شيء .(١)

أما الزوجة المفجوعة ،فقد كفت عن الصوات حين دخل ولداها الحجرة ،لأنها
ارادت ان تتركهما ينفسان عن صدرهما ،فتماسكت واقفة في جلبابها الأسود وقد
احمرت عيناها وانتفخ خداها وانفها . وحين انتصف الليل ،كانت قد روت قصة
الوفاة للمرة العشرين ،في ذلك اليوم الحزين . (٢)

واخت الزوجة ،التي اتت بثياب ريفيه ،هرولت الى الداخل وهي تصرخ " يا
خراب بيتك يا اختي . (٣)

أما كمال عبد الجواد ،الابن الكهل ،في رواية " السكريه " ،فقد تسمرت قدماه
وراء شباك السرير ،وانعقد لسانه ،وتحجرت عيناه ولم يجد شيئا يقوله او شيئا يفعله ،
وعانى شعورا قاهرا بالعجز المطلق ،واليأس المطلق ،والتفاهة المطلقة ،وأدرك ان كنه
ساعة الموت الأخيرة ، سيبقى سرا الى الأبد ،وان وصفه بالألم ،او الفزع ،او الغيبوبة ،
رجم بالغيب ،ولكنه على كل حال لا ينبغي ان تطول ،انها اجل واخطر من ان
تبتذل . (٤)

---

(١) بداية ونهاية – ص ١١
(٢) " " – ص ١٥
(٣) " " – ص ١١
(٤) السكريه – ص ٢٦

بينما صرخت اخته عائشة ،الأرملة الثكلى ، " يا ابي ٠٠ يا نعيمة ٠٠ يا عثمان ٠" (١)

أمـا الأخت الثانية ،خديجة ،القوية الشخصية ،فانها حين بلغـت نبأ وفاة والدهـا ، قلب البيت الحيّ من كـثرة البكـاء ٠ (٢)

بينما مالت الزوجة على اذن زوجها الميت ،وتشهدت بصوت مسموع ،وكررت ذلك ،ثم طلبت من اولادها ان يخرجوا من الحجرة ،لتقم بواجبها الأخير نحو زوجها ٠ (٣)

الأولاد كلهم بكوا : كمال وياسين الضخم الجثة المزواج ،فتطلـع الأحفاد الى الرجليـن الباكـيين في حزن ،ووجم ،وشيء من الدهـش ٠

أمـا ابراهيم شوكـت ـ الصهر زوج البنت ـ وهو من الأعيان ،فانّ اول ما يتبادر الـى ذهنه ،هو أن الجنازة يجب ان تكون جديرة بمقامه ٠ وكـذلك رضوان ،الحفيد الوصولي ،الـذى يقترح اقامة سـرادق العزاء في ميدان بيت القاضي ،لانّ الشارع امام البيت ضيق ،خاصة لانـه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونـواب ٠ (٤)

وأمـا في رواية " السـراب " فلموت الأب وجه آخر ،ذلك ان الأب كان ثريا ،سكـيرا ، بخيلا ،وحين تلقى كامل رؤيـة نبأ وفـاة والده هاتفيا من اخيه ،تملكـته في البدء دهشـة ، ثم ما لبثت دهشته ان استحالت خوفا ،لانّ الموت يخيفه دائما ٠ ولمّـا افاق من وقع الدهشة ، استشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسه ٠ " ترى متى مات وكيف مات ؟ ألا ما اغرب المـوت !! انّ الموت لا يتخلى عما له من فداحة المأسـاة ،حتى في حال رجـل كأبي عاش جلّ عمـره

---

(١) السكريه ـ ص ٢٦٦
(٢) " ـ ص ٢٧٣
(٣) " ـ ص ٢٦٦
(٤) " ـ ص ٢٦٨

عيشـة الأموات ، بعيدا عن الدنيا والناس ، وطرحت على نفسي هذا السؤال : من عسى يحـزن لموت ابي ؟ اخي مدحت ؟ اختي راضية ؟ بدا لي انه سيغادر الدنيا غير مودع بحزن أو بأسى ، وبدا لي ذاك مأساة افظع من مأساة الموت نفسها • أليس مستنكرا ان يحيا انسان في هـــذه الدنيا اكثر من سبعين عاما ، ثم لا يترك وراءه راثيـا ••؟ وجدت عند ذاك عطفـا وحزنـــا ، وانها لعاطفة غريبة لم تختلج له في صدرى من قبل ، ولعلها كانت وليدة الارتياح ، لا الأسى ، لأنه في مثل حالتي ، قد تجود النفس بالحزن لتدارى سرورها ، او لتعبّر عن هذا السرور بطريق ملتو ، ولعلها عاطفة صادقـة افصحت عن نفسها ، بعد ان ذهبت بموته العوائق التي كانـت تعتاقها ••(١)

وتصارعت في نفسه المشاعر ، لم يستطع ان يقاوم موجة رقيقة من الارتياح والسرور لكونه سيرث ، "على ان شعوره الديني العميق ، احتج احتجاجا صارخا ، وبثّ في حناياه الخوف والقلـــق ، فتعوّذ بالله من الشيطان الرجيـم ••(٢)

هكـذا كان وقع موت الأب المورّث البعيد عن اولاده ، المتنازل عن حقه في رعاية ابنـــه للجد ، مقابل الآ يتكلف عليه مليما واحدا • ان كامل روءبه نفسه ، الذى داخله الفرح لمـوت أبيه ، يصاب بالهلع لموت جده ، فلقد كان جناح العطف الذى اظله ، فنعم في ظله بالعيـش الرغيـد والحياة الرهيفة الطيبة ، وتصرخ ابنته — امام كامل — صرخة مدوية ، وتولول في وجـع "ابي •• ابي • " فهي اشد الأهل فجيعة وحزنـا ، لأنها لم تفارقه طوال عمرها ، اللهـــم الآ ثلاثـة اشهر قضتها على مضض ، في بيـت زوجها •

---

(١) الســـراب — ص ١٧٠
(٢) " — ص ١٧٣

ب ـ تقاليده الاجتماعيـــة :

للموت ، ككـل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، تقاليد خاصة ، ولا تقل تقاليـــده شأنا عن الافراح ، والاعراس ، والاعياد ، وتؤثر الطبقيـة والعلاقات العامة ، والجوار ، فـــي هذه المظاهـــر .

حسـنين في رواية " بدايه ونهايه " ، كان يعد اخفاق الجنازة كارثة كالموت نفســـه ، غضبـا لابيه الذى يحبه ، ولنفسه هو ، كان يهمه عدد المشيعين بقدر ما تهمه نوعيتهم ، وحيـــن قلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين ، لم يرا احدا يملأ العين الا حارهم الكريم فريد افندى محمد ، أمـا زوج خالته ، فكان في حكم العمال ، وليسوا جابر سليمان البقال ، بخير منه ، والحلاق ادهى وأمر ، ونفر غيرهم غيابهم اشرف من حضورهم ، عندئـــذ انقبض صدره وغشيه كدر عميق ، ولم ترد اليـه الروح ويتخلص من قلقه ، الا لما جاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه ووقفت على بعد يسير مـــن البيت ، وغادرها ساع ففتح بابها ، ثم نزل منها رجل ينم مظهره على الالقاب والرتب ، فهرع اليه الاخوة بأدب ، واندس بينهم فريد افندى محمد ، ليحـظى باسـتقبال الشخصية الممتازة ، التـي ينبغي ان يقدرها ـ كموظف ـ اكثر من سواه . ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيا مـــــن الخـــيزران على قارعة الطريق ، فشعروا بحرج غير قليـل .

انهم وهم غارقون في الحزن ، لم ينسوا ان يظهروا بغير مظاهرهم الحقيقي ، خصوصـا ، حسنين ، الذى كان حريصا على الا تقع عين على القبر ، حفظا لكرامة الاسرة ، في حين ود لـــو يرى كل المشيعيـن ذلك المفتش الذى انقـذه من قلقـه .

كان يحسّ هذه الأحاسيس، في اللحظات الحاسمة المفجعة، حين خرج النعش من البيت، وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ، وحتى حين بلغوا المسجد، واظهر بعض المشيعين استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير، كان كل همه ان لا يذهب احد مهما كلف الأمر "لا مقبرة ولا يحزنون. لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟ سيبقى هذا القبر المغمور في العراء رمزا لضياعنا المخجل في هذه المدينة الكبيرة ". (١)

ذلك لأنه من تقاليد الموت ان تبني العائلات مقابر لها، يتوارثونها جيلا بعد جيل. (٢)

ومن تقاليد الموت، ان يقدم الجيران لأهل الميت فطير القرافة، على ان تهدى العائلة ما يماثلها، عقب العودة من القرافه، الا اذا كانت العائلة تعاني فقرا شديدا لوفاة المعيل، عندئذ، ترد الهدية في وقتها. (٣)

ولا تختلف رغبة عائلة السيد احمد عبدالجواد في رواية "السكرية" عن رغبة عائلة كامل في رواية "بداية ونهايه"، في وجوب اقامة جنازة جديرة بمقام الميت، وان كانت هذه العائلة تستطيع ان تحقق رغبتها، اولا، لأنها تنتمي الى طبقة التجار، وتلك كانت تنتمي لطبقة الموظفين الصغار، ثم، لأن الميت خلّف اولادا واحفادا، وباتت عائلته كبيره بأصهارها الأغنياء.

ابراهيم شوكت، يهتف منذ علم بوفاة حميه

ـ "يجب ان تكون الجنازة جديرة بمقامه.

---

(١) بداية ونهاية ـ ص ١٤ ـ ١٦
(٢) " " ـ ص ١٦
(٣) " " ـ ص ٤٦

ويجيبه الابن الأكبر ياسين

ـ هذا اقل ما يجب ٠

أمّا الحفيد رضوان ،فيقترح اقامة سرادق العزاء في ميدان بيت القاضي ، لأن " الشارع امام البيت ضيق لا يتسع للسرادق المناسب ،مع ان العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء امام بيت المتوفي ٠" (١)

ويوافقون لعلمهم انه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب ٠

ولانهم لن يتمكنوا من نشر النعي في جرائد الصباح ،يؤجلون الجنازة الى العصر ، لتتمكن جرائد المساء ،التي تصدر حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ،من نشره ٠

وكانت الجنازة كما رسموا ،وكان اصدقاء الحفيد عبدالمنعم اكثر عددا ٠ أمّا اصدقاء الحفيد رضوان فكانوا اعلى مقاما ،ولفت نفر منهم الانظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد والمجلات ٠ وكان رضوان بهم مزهوا ،حتى كاد يغطي زهوه على حزنه ٠ وشيّع اهل الحي " جار العمر " حتى الذين لم يصلهم به سبب من اسباب التعارف الشخصي ٠ فلم تكد الجنازة تخلو الا من اصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه الى الدار الآخرة ٠ (٢)

ومن تقاليد الموت ،أن تخلى حجرة الميت من أثاثها القديم شرط الا تهجر وتستوحش، فتتحول بتغيير اثاثها الى استعمال آخر ٠ وتوزع المخلفات العزيزة ،يبدأ الأبناء باختيار ما يرغبون في اقتنائه من اثر ابيهم الراحل ،ثم تختار الزوجة ،وما تبقى ،يوزع على الفقراء الذين سيدعون للفقيد بالرحمة في مقره الأخير ٠

---

(١) السكرية ـ ص ٢٦٨
(٢) " ـ ص ٢٧٠

والتقليد الواضح عند هذه الأسرة ، التي كان يمثل الزوج فيها السيد المطلق ، وتمثل الزوجة الظل الأمين ، هو انشغال الأسرة بكاملها في الاعداد للقرافه وتجهيز الرحمة . فزيارة القرافه من اوجب الواجبات . وقد اصبح القبر يجمعهم جميعا كما كان يجمعهم مجلس القهوة في الزمان الخالي . وتنوح خديجة - الابنة الكبرى - حتى ينال منها الاعياء ، ثم تؤمر بالسكوت تأدبا لاستماع تلاوة القرآن .(١)

وفي رواية "السراب" ، تظهر الرغبة في جنازة كبيرة ، الا انها تظل رغبة ولا تتحقق ، لأنه لم يكن للميت - برغم ثرائه - معارف ، ولم يكن للعم اصدقاء في القاهرة . فلم يزد عدد المشيعين على عشرين ، مما دعا العم لأن يقول متأثرا : " انه سيحيي ليلة المأتم في بيته بالفيوم . " .(٢)

ومع ان اولاد الميت عاشوا بعيدين عنه بعد طلاق امهم ، فان ابنته الوحيدة ، راضيه ، عملت بتقاليد الموت ، فصاحت ساعة خروج النعش من البيت .

ومن تقاليد الموت ، أن يجتمع آل الميت الأقربون في الليلة الأولى ببيته ، وقد عملت هذه العائلة بهذا التقليد ، الا ان حديثها كان عن الوراثه . بدأ العم العملي بالتحدث عن الاجراءات الواجبة لاثبات الوراثة ، واقترح ان يقدمهم الى صديق له في وزارة الأوقاف ، ليبسر لهم قبض مرتباتهم الشهرية ، ثم اتفقوا على ان يبيعوا بيت ابيهم الكبير ، ويتقاسموا ثمنه .

وبرغم حقد الأم على زوجها المتوفي ، فانها أصرت على تلقين ولدها الشاب ، تقليدا من تقاليد الموت ، وهو الدعوة للميت بالرحمة " اياك وان تفرح لموت احد . لا تذكر اباك من الآن فصاعدا الا دعوت له بالرحمة ، فما احب لك ان تسر لموت انسان مهما كان هذا الانسان ." .(٣)

---

(١) السكريه - ص ٢٧١-٢٧٥
(٢) " - ص ١٧٢
(٣) السراب - ص ١٧٥

وتحدثنا رواية "السراب" ،عن تقاليد موت جد كامل "الاميرالاى عبدالله بك حسن" الذى توفي فجأة في القهوة بين اصحابه ،واحضره اصحابه الى البيت ،وسجوه على فراش الموت ، واقبلوا عليه يقبلون جبينه واحدا في اثر آخر ،وعزوا ابنته ،وخرجوا من الحجرة صامتين ، وتطوع احدهم بابلاغ وزارة الحربية على ان تشيع الجنازة صباحا .

وكما هو متبع في حالات الموت عامة ،أبلغ الأهل وحضروا كلهم ، "ولما حم الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات واطلقت المدافع تحية لجدته وحمل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش ." (١)

---

(١) السراب – ص ١٣٠

ج — الاثر النفسي :

يثير موت الأب في النفوس ، مختلف المشاعر ، حسب مكانته وموقعه في العائلة ، فمن تشكيك في العدالة الالهيه ، الى شعور بالمهانه ، الى احساس بالضياع والفراغ والوحشه ، الى ارتياح مشوب بالقلق •

ولما كانت كل العائلات التي يكتب عنها نجيب محفوظ ، عائلات مسلمة مؤمنة ، تنتمي الى شريحة في المجتمع يطغى الدين على كيانها النفسي ، والروحي ، ويسيّر حياتها الاجتماعية بوحي من تقاليده ، فانه من المسلّم به ، ان تتقبل الموت كحقيقة لا تقبل جدلا • "فالموت حق " "وقضاء الله " • الا انا نجد بعض شخصيات هذا الفنان ، تقف متشككة في العدالة الالهيه امام الموت •• وينبثق شكها في البدء ، من وضعها الاجتماعي الذى يتأتى عن الموت ، وهذا الموقف ، كما يعتقد الأستاذ ادوار خراط ، " هو الشغل الشاغل لكل فنان عظيم ، فالفنان يلجأ الى الهموم الاجتماعية التي تتصل على الفور اتصالا حميما بالهموم الميتافيزيقية الكبرى ، هموم الخير والشر ، والعدالة بمعناها الأشمل الاعم ، العدالة الكونيه ان شئت ، هموم المصير والفناء والمعرفة والفساد والسعادة والمحبة •" (١)

حسن في " بداية ونهايه " يهتف وقد انقطع المورد — لماذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا (٢)

ويجيب صوت اخيه المؤمن : " الا ترى ان الله اذا كان مسئولا عن موت والدنا ، فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه •" (٣)

---

(١) خراط ، ادوار — عالم نجيب محفوظ — مجلة المجلة — العدد ٧٣ ، يناير سنة ١٩٦٣ — ص ١٨

(٢) بداية ونهاية — ص ٢٢

(٣) " " — ص ٣٢

ولم تكن قلة المعاش ، الهاجس الذى استبد بالعائلة ، بل ان الموقف الصارم الذى اتخذته الأم في تحديد المسئوليات ، ورسم خطة العيش الجديدة ، وافضاء جو الحزن والجدية على البيت ، قد زاد من توتر النفوس الشابه ، وانتقادها لجو عائلي مريح ٠

" يبدو ان الحياة لم تعد تطاق ، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح :

– ليتنا ما عرفناه قط ، ليتنا ما عرفنا التدلل ابدا ، اذن لهانت علينا الحياة الجديدة المقضي علينا بها ٠ ليس الفراق شرما في الموت ٠ ان الفراق حزن المطمئن ٠ متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير في الحزن ، لشد ما نتغير ونتدهور ، ولكن ينبغي أن نصبر أو في الاقل ان نتظاهر بالصبر ٠ أكبر جريمة في نظرى ان نضاعف بحزعنا شقاء أمنا ٠" (١)

وفي سبيل التخفيف من شقاء الأم ، قهر الشابان نفسيهما ، وتنازلا عن أكثر شيء يحبانه : الاشتراك في نادى كرة القدم ، وهما من خيرة اللاعبين ٠ وقبلا بعد ثورة غضب ، ان تعمل اختهما خياطة ٠

" وأيقنا ان خسارتهما بفقد ابيهما لا تعوّض ابدا ٠" (٢)

أمّا الأم ، فكانت تحرّم على نفسها البكاء امام ابنائها ، خشية ان تعاودهم حدة الحزن ٠ لم يكن لهم من احد يعتمد عليه سواها ، فوجب ان تظهر بمظهر الرحولة ٠ ولو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع كسائر النساء ، ولكن لم يكن لنا محيد عن التصبر والتجلد ٠ وفضلا عن هذا كله ، فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها ، بما جشمها من هموم العيش وأثقاله ، ووجدت نفسها في الغالب مضطرة الى تناسي احزان القلب ، لتناضل ما يتهدد اسرتها من الضراء " يحز في نفسي الا اجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى ، ولكن ما الحيلة ؟؟ حتى الحزن نفسه محرّم على امثالنا من الفقراء ٠" (٣)

---

(١) بداية ونهاية – ص ٣٧
(٢) " " – ص ٣٨
(٣) " " – ص ٤٤

ولحق نفيسه ـ البنت الصبية ـ شعور بالخزى والهوان والضعه ، لانه بموت ابيها ، فرض عليها ان تعمل خياطه ، فشعرت بأنها تهوى من عل ، وانها امست فتاة اخرى . ليس بين الكرامة والضعه الا كلمه ، كانت فتاة محترمه فانقلبت خياطه " آن حزني عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذى مسنا بعده فحسب ، ولكن لان هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . اني آلم لألمه ، لا بد انه يتألم لنا ، لشد ما كان يحبني . كانه يحدس ما يرصدني من شقاء . لله ما الطفه واعذبه ، لم يكن مثله احد في الرجال . مات .. مات .. لن انس ما حييت ايماءته الى صدره وهو ملقى على الكنبه ، ابي يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة بغيضه مفجعة لا خير فيها ... وحيده ، وحيده ، وحيده في يأسي والمي ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما ابشع هذا . لم يأت الزوج بالامس والدنيا دنيا ، فكيف يأتي اليوم أو غدا ؟ لا فائدة سوف اظل هكذا ما حييت ." (١)

وبلغ شعور نفيسه بالمهانه واليأس اثر يتمها حدا جعلها تهتف "اني ميته كأبي ، وهو في باب النصر وانا في شبرا ." (١)

أمّا شعور كمال عبد الجواد باليتم ، فكان من نوع آخر ، وبالرغم من انه كان كهلا ، ولا حاجة به لمال ابيه ، او رعايته ، الا انه احسّ بالفراغ . "فقد كان الأب ـ حتى بعد انزوائه ـ يملأ هذه الحياة ، فلن يكون غريبا اذا وجد غدا البيت غير البيت الذى عهده ، والحياة غير الحياة التي الفها ، بل عليه منذ اللحظة ان يعد نفسه لدور جديد ." (٢)

أمـا الزوجة امينة ، فهي التي هدّها الترمل بعد الثكل ، فقد عاشت حياتها عبدة مطيعة لسيدها . هي سيدة مؤمنة بقضاء الله ، وحريصه ، كأم حسن في رواية " بدايه ونهاية"،

---

(١) بداية ونهايه ـ ص ٤٩
(٢) السكريه ـ ص ٢٦٦

على الا تبكي او تحزن امام اولادها ،لتشجعهم على النسيان ،فلا ينال منهم الحزن أي منال . ولكنها ما ان تخلو الى نفسها حتى تبكي الى ان تحف دموعها ،ذلك انها اصبحت تحس بفراغ كبير في حياتها ، " لم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل ،وكل ساعة من ساعات يومي مرتبطة بذكرى سيدى ".(١)
وانزوت امينة في حجرتها ،وانقطعت عن تعاطي أى عمل من اعمال البيت ، سوى تجهيز الرحمة وزيارة القرافه . وانقطعت صلتها بالمستقبل ،الا فيما يتعلق بالدعوات الصالحات لأبنائها بأن يمتعهم بطول العمر،ويقر اعينهم بأفراح الحياة .

أما بالنسبة لعائشة ،ابنتها الأرملة الثكلى ،التي فقدت زوجها واولادها وهي في عز الشباب ،فقد كان موت الوالد استمرارا لحالتها البكائيه ،بل ان موته ،قد هاج حزنها ، فهي تبكي اباها ،وابنتها ، وابنيها ،وزوجها ،وهي تعيش مع الموتى في صحوها ونومها ، تحلم بأنها رأت أباها قابضا على ساعد نعيمة بيد ،وعلى ساعد محمد بيد ،حاملا عثمان على كتفه وقال لها انه بخير،وانهم بخير . فسألته عن سر النافذة التي نورت لها في السماء ثم توارت الى الأبد ، فتجلت في عينيه نظرة عتاب ولم ينبس .

والحق ان عائشة بعد فقدها اولادها وزوجها،انقلبت الى انسانه تهوى التحدث عن المصائب والغرائب ، مفرطة في التدخين وشرب القهوة ، "كأنما كانت تعتز بدرجتها الممتازة في دنيا الشقاء ".(٢)

في حين يبدو كامل رؤبه،الذى عاش حياته جبانا غير واثق من نفسه وعاجزا عن تحقيق غاية من غاياته ،مسرورا برغم قلقه ورهبته من الموت ، تصطرع في نفسه المشاعر والتأملات ،

---

(١) السكريه — ص ٢٧٢
(٢) " — ص ٢٧٣

" أتكون الثروة المنتظرة وسيلتي للسعادة المرموقة ، ام تكون اداة حديدة من ادوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة ، لقد سخر من فقري وعجزي ، وانه لقادر على ان يسخر من ثرائي وقوتي ، ليريني اني على الحالين مقضي عليّ بالحسرة والتعاسة ."(١)

ان الثروة التي هبطت عليه بعد وفاة ابيه ، لم تمنحه الراحة النفسية ، وان منّته بأنه على الأقل سيتمكن من ان ينافس أى انسان ، يفكر في خطبة فتاة احلامه ، بل انه اعتبر حالته بعد الغنى ، حالة جنون " ولكن مسني جنون لم يكن لي به عهد ، جنون محب لا يقعده الفقر ، جنون من تبدو له السعادة ممكنه ."(٢)

أمّا الحالة النفسية التي اعترضته بعد موت جده المعيل ، فقد كانت مزيجا من الخوف والتشاؤم . آلمه ان يجد نفسه مسئولا عن غيره ، وهو الذى ألف ان توكل مسئوليته بغيره . تجهم له وجه الدنيا ، وخارت عزيمته ، وامتلأت نفسه تشاؤما ، حتى توقع شرا وراء كل خطوة يخطوها ، وخشي ان تستغني عنه الحكومة كموظف ، وخشي ان يصادفه حادث في الطريق ، يقضي عليه بعاهة تقعده عن السعي من اجل الحياة .

نموذج للانسان الاتكالي الجبان الذى يبحث دائما عن معيل يمده بالمال ، حتى لو اتى هذا المال نتيجة لموت ابيه .. " وتمنى لو يقدر ان يقتل اباه ".(٣)

أما الامّ الجزعه لوفاة والدها ، الحاقدة على مطلقها ، الشاعرة بأنها ستصبح حملا ثقيلا على ولدها ، فتظل منسجمة مع نفسها ومع موروثها الديني ، وهي تنهى ولدها عن بناء آماله في الحياة ، على موت انسان " لا تبن آمالك في الحياة على موت انسان . الاعمار بيد الله ."(٤)

---

(١) السراب — ص ١٧٣
(٢) " — ص ١٧٧
(٣) " — ص ١٣٤
(٤) " — ص ١٣٣

د ـ اثره الاقتصادى والاجتماعي :

يبرز اثر موت المعيل اقتصاديا واجتماعيا ،في رواية " بداية ونهايه " ،بروزا واضحا ، فبموته انقطع المورد ،كان موظفا ولم يخلّف شيئا الا معاشه وتدره خمسة جنيهات،لورثته : المكونيين من ام ،واربعة اولاد .

الامْ القوية الشخصية المدبرة ،تتولى زمام الامور ، وتخط سياسة لعيشة شديدة التقتير . " ولا مليم مصروف للاولاد " ، يحرم حسين وحسنين من اشتراك نادى الكره ،من السينما ، والروايات . حتى الاكل يؤمران ان يتناولاه من الغداء المدرسي ،رغم ما يلحق الاكلين حتى الشبع في المدرسة ،من غمز .

ويؤمر حسن ـ الاخ الاكبر ـ ان يجد لنفسه عملا ،فلا مجال لاطعامه في البيت ، لا سيما وانه عاطل عن العمل ،ومن يوم ترك المدرسه وهو لا يثبت في عمل معيّن .

أمّا نفيسه ،فلتعمل خياطه ،ولطالما خاطت للجارات محبّه ومجاملة ،فلتتقاضى على تعبها مكافأة .

وبرغم معارضة الاخوة وشعورهم بالمهانه من عمل اختهم خياطه ،فقد فرضت الامْ على نفيسه ان تقبل " لست احب لاحد منكم المهانه ولكن للضرورة احكام ولا حيلة لي ".(١)

ولم تعف نفسها من مواقف الذل ،فقد كان عليها ان تسعى وراء همومها الحديدة ، ذهبت الى وزارة المعارف تلاحق صرف معاش زوجها ،ولما علمت ان الاجراءات الروتينية ،تؤخر الصرف عدة شهور ،لجأت الى وساطة احمد بك يسرى ،المفتش الكبير ،الذى كان صديقا لزوجها ، وحضر الجنازة .. وعنده اكتشفت ان صداقة الغني للفقير ،لا يمكن ان تكون صداقة الند للند

---

(١) بداية ونهايه ـ ص ٢١ ـ ٢٤

" ولعله كان صديقا من اصدقاء الدرجه الثالثه ،كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه ،دون ان يعـده ندا او صديقا كسائر البكـوات والباشـوات ." (١)

أمـا صداقة الند للند ،فقد ظهرت عند جيرانهم الذين كانوا بمستواهم ،يوم كان الأب موظفا ،اذ تعاطف هؤلاء معهم في محنتهم ،بطريقة تبقي على كرامتهم ،فكانت الزوجة ، أول زبونة للخياطة عند نفيسه ،وكان الزوج ،اول من عرض على حسـنين وحسين ان يدرّسا ولده بعـد الدوام المدرسـي ،مقابل اجـر .

الفقـر الذى دهم العائلة بموت معيلها ،اضطرهـا الى التنازل عن سكنها ،الى سكن وضيع ،شـقه ارضيه بمستوى الفناء الترب ،محرومة من الشمس والهواء ، لا شرفة لها ،ونوافذ عـا مطلـة على عطفه جانبية تكاد تبدو منها رؤوس الماره ،ثم اضطرها الفقر الى بيع الاثاث ،بـدأ البيع بفراش الأب ،وانتهى بمعظم اثاث الشـقة ،ولم يبق فيها الآ ما كان لاستعماله حاجـة ملحـة .

والفقر ،هو الذى خرج بنفيسه الى الشارع لابتياع الحاجات من البقال بعد طرد الخادم ، لحاجتهم الى أجره ، وهو الذى اضطرها للعمل في البيوت كخياطه ،وكان لهذا الخروج ،اثـر قوى على مشاعرهـا التي افتقدت بموت الأب ،القلب الذى يحبها ،ويعطف عليها ،ويبادلهـا الموده ،والتي آلـت الى تصرفات اودت بحياتهـا .

ولم يكن الحب محرما على نفيسه وحدها ،بل انه كان محرما ايضا على جميع افراد العائله ، فحين احب حسـنين ابنة الجيران ،الذين مدوا لهم يد المساعدة ورغب في خطبتها ،كان موقـف امه شديد القسـاوة " لك قلب تحسد عليه فانه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا ان يعشـق ،

---

(١) بدايه ونهايـه — ص ٢٨

وان يستهين بنا جميعا في سبيل سعادته ،والحق اني ذهلت حين حدثني فريد افنـــدى عن آمالك الواسعه ،وخيالك العجيب ،ولكنني حدثته بدورى عن كفاحنا وتعاستنا ،حدثته عـن أثاثنا الذى نبيعه قطعة قطعة،لنحصل على الضرورى من القوت ،وعن شقاء اختك التي تمتهـن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذاك ،ثم صارحته بأن احدا من ابنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة ." (١)

ام قاسية ،عنيفه في الحد من تطلعات اسرتها،وطلباتها،ورغباتها . وقد دفعت ثمن هذه القسوة ،التي تجلدت بها في سبيل اسرتها . اذ انهد حيلها وهرمت في عامين ،كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان ،فنحلت ،وهزلت ،حتى استحالت جلدا وعظاما ،كانت تعمل النهار كله ،تطبخ ،وتغسل ،وتكنس ،وتمسح ،وترتق ،وترفـو ،وترعى ابنيها خاصة ،تحثهما على العمل وتكبح من نزواتهما ،وتحـول بينهما وبين الاشتراك في الحياة السياسية ،خوفا على حياتهما بعد مقتل الطلاب في المظاهرات من جهة ،ولجهلها التام بالسياسة ،واستغراق الاسرة مشاعرهـا .

ونجحت في ابعادهما عن الاشتراك الفعلي في المظاهرات ،الا انها لم تقـدر ان تمنعهما من التفكير ،والتأمل ،وابداء الرأى ،فوطنهما محتل ،والشعب يناضل للاستقلال ، والشباب يسقطون شهداء لتحقيق الاستقلال ،ثم انهما يعتقدان ان حالتهما الاجتماعيـة متأثرة بالوضع السياسي ،أى بالاحتلال " لو لم يكن الاحتلال،لما تركت اسرتنا بعد مـوت أبي بلا معين ." (٢)

الا ان الأم ،التي هي نموذج - كما يقول محمود حشمت عبدالظاهر - للأم المصريه الجاهله غير الواعيه بحقيقة المشكلة وجذورها ،لا تعلم ان مشكلة اسرتها جزء من المشكلة العامه،

---

(١) بداية ونهايه - ص ٩٦
(٢) " " - ص ١٧٦

لذلك لم تـع ما قاله حسـنين عن وضع الأسرة في ظل الأحتلال ،وهي منذ البدء لا تحفـل بالأحاديث العامة التي تسـاق اليها احيانا ،كل ما يعنيها ان تصل بابنيها حسين وحسـنين الى بر الأمان وان تأوى الأسرة منهما الى ركـن ركيـن ".(١) لذلك فان اول يم بهيـج منذ عامين كئيبين ،كان يم حصـول حسـين على البكالـوريـا . ففيه طابت النفوس ولهجـت الألسن بالشكر لله . وتكرس حسين ضحية جديدة للعائلة بعد نفيسه ،فلا بد ان يعمـل ، ويكـبح رغبته في اتمام تعليمه العالي " ينبغي ان يضحّي احدنا ويرضى بالتوظف الآن ،وهـذا هو واجبي انا ،الأخ الأكـبر وصاحب البكالـوريا ،اني ادرك الحال على حقيقتها ،واعلـم انه من القسـوة الشريره ان افكر في تكملـة تعليمـي ، فلأرض بحظي ،ولندع الله جميعـا ان يوفقنا الى ما نريد ".(٢)

ولم تقف تضحيـة حسين عند قبوله بالوظيفة بعيـدا عن بيته في طنطا ،وانما كان عليه ان يكـبح جماح رغبته في الزواج ،بعد ان عثر على الفتاة المناسبة ،واصطرعت في نفسـه قوتان : مشاعره ، وواجبه نحو اسرته ، وانتصر الواجـب .

واذا كان الواجب قد انتصر عند حسين ،فان التطلعات الطبقية ،والمطامح ،والرغبه في تغيير الواقع المخجل ،كانت دائما تنتصر عند حسنين ، ولم يكن يهمه من تكون ضحيته ،اخته نفيسه ،أو اخاه حسن ،الذى احترف البلطجة ،والذى اعتبر حسنين حياته فضيحة يجب التستر عليها ، أو اخاه حسـين الموظف التعيس في طنطـا ،او ابنة الجيران التي احبها ومنا هـا بالـزواج .

---

(١) عبد الظاهر ،محمود - النهاية في بداية ونهاية - مجلة الآداب - العدد ١١ ،تشريـن ثاني سنة ١٩٦٠ - ص ٤٤ .
(٢) بدايـة ونهايـة - ص ١٧٩ .

وكان نصيب حسن من الفقر الذى الم بالعائلة بعد موت الوالد ، هو ترك البيت ، والتسكع في الحانات ، ومرافقة المومسات ، والمهربين ، والمجرمين ، والمقامرين ،عمل مطربا في الحانات ، وراعيا للمومسات ، وفتوة ، ومهربا ،لكنه برغم انتماحه هذه الحياة لم ينس عائلته ، وظل يمد لها يد المساعدة ، فكان يوافيها بين الحين والحين بفخذ خروف . واليه لجأ اخواه ، برغم فجيعتهما بواقعه ، طلبا للمعونة المادية : حسين ، عندما احتاج لمصاريف السفر بعد تعيينه كاتبا في مدرسة طنطا ،وحسنين ، عندما قبل تلميذا بالمدرسة الحربية .

وانتهى المطاف بحسن الى أن اصبح طريد العدالة ،هاربا من وجه البوليس.(١)

في "الثلاثية" ،تبدأ آثار الموت الاجتماعية تظهر ،منذ مرض السيد احمد عبد الجواد ،فبعد سقوطه بنوبة ضغط ، وهو يمارس فسقه في بيت العالمة ،تفرض عليه حياة قاسية : ينقطع عن السهر ،والشرب ،والسمر ،ويتبع نظاما قاسيا .وباشتداد المرض عليه ينقلب في علاقته مع اولاده ،من أب متسلط متجبر ،الى صديق لطيف يتقبل المناقشة ،ويقبل بزيارة ابنه الكبير له ،وعودته للبيت ،بعد ان تركه اثر زواجه من خطيبة اخيه الشهيد فهمي ويلاقي العائد صفحا من زوج ابيه ،اكراما لمرض الوالد . (٢)

ويضطره احساسه باقتراب اجله ،الى ان يبيع دكانه ،وكان بيع الدكان حدثا هاما في حياة الأسرة ،ليس من الناحية الاقتصادية ،فالمال المدخر متوفر ،وانما لأن ذلك كان يعني ، ان يلازم السيد بيته ملازمة تامة ،بانتظار ان يوافيه الموت .ولما كان السيد مسلما مؤمنا ،برغم حياة الليل الفاسقه التي عاشها ،فانه لم تكن له امنية في ايامه الأخيرة ،سوى حسن الختام ، "اني اسأل الله اذا حمّ القضاء ان يكرمني بالموت ،أما الرقاد اعواما بلا حراك ..اللهم رحمتك".(٣)

---

(١) بداية ونهاية - ص ٣٥٥
(٢) قصر الشوق - ص ٤٤٣
(٣) " " - ص ٤٥١

ومن أكثر المظاهر الاجتماعية وضوحا ، هو انقلاب الآية في حياة الزوجين ، فبعد ما كان محرما على الزوجة ان تغادر البيت ليلا او نهارا ، بينما يقضي هو نهاره في الدكان، وليله في السهر والسمر ، اصبحت هي التي لا تمكث في البيت ، تقضي نهارها تجول في القاهرة من مسجد الى مسجد ، وصار هو جليس المشربيه :

– " ما شاء الله ، من طلعة الصبح يا وليه ؟؟!

– زرت سيدتك ، وزرت سيدك ودعوت لك وللجميع .

– أيصح ان تتركيني وحدى كل هذا الوقت ؟؟

– انت اذنت لي يا سيدى ، ما احوجنا الى الدعاء ، توسلت الى سيدى ان يرد اليك صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء ، كما دعوت لعائشة وللجميع ." (١)

ان السيد ، الذى عاش والاصدقاء حواليه ، يملاؤن حياته انسا ولهوا وصفاء ، قد امسى وهو على فراش المرض وحيدا ، كأنه لم يعرف من الناس احدا ، لا زائر ولا عائد ، كمال ابنه ، يجالسه خطفا كالطيف ، وعائشة ابنته ، منصرفة عنه الى احزانها بوفاة زوجها وأولادها ، حتى مناجاة الرحمن افتقدها حين حيل بينه وبين الصلاة .

هذا قبل الموت ، واما بعده ، فتعود الأم الى ملازمة بيتها ، وتنقطع عن زيارة المساجد ، ولا تخرج الآ لزيارة القبر الذى سكنه ولدها الشهيد قبل أبيه ، والذى اعتبرته منذ ذلك الحين ، حجرة من البيت ، لكنه في اطراف الحي . حتى عرس حفيدها الذى تم بعد سنة واربعة شهور من وفاة زوجها ، لا تحضره ، لا هي ولا ابنتها عائشة "انا لا اشهد الآ المآتم " (٢)

ويستمر باقي الأولاد في حياتهم العادية .

---

(١) السكريه – ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٢) " – ص ٣٢٩

وفي رواية " السراب " ،يظهر الاثر الاقتصادي والاجتماعي بتناقضه ،فحين مات الجد المعيل وانقطع معاشه ، هبط مستوى معيشة العائلة ، ترك كامل روءبه ووالدته بيتهما الى بيت اصغر ،واستغنيا عن الخدم بكثير من الكمد والحياء ،حتى ان الام اضطرت ان تكذب وهي تورد سبب الاستغناء حفظا لكرامتها " آثرت الكذب على الاعتراف بالفقر "(١) وعملت هي ،التي لم تعمل ابدا ،في خدمة البيت ،برغم بلوغها منتصف الحلقة السادسة من العمر .

وأما كامل ،فقد اصبح قانطا من نيل حبيبته ،بعد رزوحه تحت وقر الفقر ،ولكي يهرب من واقعه المرير ،لجأ الى الخمر ،واصبح الحوذي الذي يأخذه الى الحانه الرخيصه،مشيره في الدنيا،بعد امه .

وقد كان موقف ام كامل في " السراب " ،كموقف ام حسن في " بداية ونهاية " ،كلتاهما عارضت زواج الاولاد في حالة الفقر ،لشعورهما بالحاجة وعدم الاستقرار .

ويختلف الاثر الاقتصادي والاجتماعي في حالة وفاة الاب المورث ،فبعد حصول كامل على الثروه ،انتقل الى مسكن لائق ،وأعاد الخدم الى البيت ،واقدم على الزواج من فتاته ، فتحقق بذلك امل حياته .

---

(١) السراب - ص ١٣٤

٢ - مـوت الأم :

أثره النفسي والاجتماعي :

لم يحصل ان ماتت ام في اعمال نجيب محفوظ وتركت اولادا صغارا ، فأحـدث موتها ازمة اجتماعية ، او خلف عقدا نفسيه ، كتلك التي يخلفها اليتم المبكر ، الا فـي رواية "اللص والكلاب" ، وكل الأمهات فيما عدا ام سعيد مهران ، متن وأولادهن صبايـا أو شباب ، وخلفن بموتهن ، آثـارا نفسية ، واجتماعية ، مختلفة باختلاف سيرهن ، ونهـج حياتهن ، وتركـتهن .

تمـرض ام سعيد مهران ، ابن بواب عمارة الطلبه الذى حل وامه مكان ابيـه عقب موته ، فنهض بالمسئولية في سن مبكرة ، فيأخذهـا الى المستشفى وهي في حالـة نزيف ، ويهرع الى الطبيب الشهير كي يسعفها بالدم . يزدريه الطبيب ، ويتفحصه بعينيـن زجاجـتين مستنكرا . فيغضب سعيد غضبة رجل برغم حداثة سنه ، ويصيح محتجا لاعنا ، ويرمي بمقعد الى الأرض ، فيحدث دويا ، وتتطاير قشرة مسـنده . ويطرد وامه مـن المستشفى ، وبعد شهر من الحادث تموت امه في قصر العيني ، وتظل اثناء احتضارهـا قابضة على يده ، وتأبى ان تحول عنه عينيهـا .

في ذلك الشهر بين النزيف والموت ، سرق سعيد اول مرة في حياته . ووجـد من رؤوف علوان ، طالب الحقوق آنذاك ، تشجيعا " لا تخف ، الحق اني اعتبر هذه السرقة عملا مشروعا " (١) وكانـت تلك انطلاقته نحو حيـاة الاجـرام .

---

(١) اللص والكلاب - ص ١١٤

في رواية " بين القصرين " تمثل ام ياسين ،المرأة المزواج ،التي تملأ سيرتها ولدهـا ، خجلا وغضبا ،فينقطع عن زيارتها ،الا انه يذهب اليها وهي على فراش الموت بدافع الواجب وحده ،" ما من قوة كانت تستطيع ان تعيده اليها ٠٠ الا الموت ٠٠ الموت "٠

وفي حضرة الموت ،تحاول الام تبرير هفواتها المؤلمة امامه ،وتشهد الله ان قلبها كـان دائما مفعما بالايمان ٠ وتبلغه ان خوفها من رفضه ان يزورها ،كان اكثر من خوفها من المـوت نفسه ٠ وتتمنى ان تسمع من ولدها كلمة حب وعفوعن الماضي ،فيلبي الولد الي‍ها وهو متشبث بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبث بها من بادئ الامر ،فقد اعادته حالة امه وهـي على فراش الموت ،الى طفولته ،كأنه يلقى ام طفولتـه التي احبها قبل ان تواريها عن قلبـه الالام ٠

لقـد محا الموت من قلبه ،كل حنق ،وكل طمع بالميراث ، وودع امه بقلب ابن ،رغـم احساسه بالحرج من الجنازة ،التي ستجمع اقدم الازواج واحدثهم ،ولن يكون في وسعه ان يطردهم من الجنازة ،فتلاحقـه الفضيحـة حتى اللحظـة الاخـيرة ٠

ولـم يبك في جنازتها ،الا انه لم يقصر في واجبه نحوهـا ، وحزن عليها ،وأقام لهـا مأتما استمر ثلاث ليال ،وكل جمعه كان يزور القرافه محملا بالرياحيـن والفواكه " ان للرجـال حزنا غير حزن النسـاء " (١)

ولـم يرث ياسين عن امه كل ما خلفته ، فقد سرق زوجها الاخير الحلي والنقود ،فبقـي للولد العقار الذى سميت الروايه باسمه ،لما شهد من احداث ،كان بطلها ياسين المزواج كأمه ٠

---

(١) بين القصريـن - ص ٥٢٦

وفي رواية "السمان والخريف" ، تموت الأمْ في ذروة انكسار ابنها السياسي والوظيفي ، تموت في القاهرة ، وهو في الاسكندرية ، فيكون تعليقه الفورى ، مرتبطا بحالته النفسية العامة ، " هذا هو المصير الأخير لكل مسكين ولكل جبار ، اجل لكل جبار " (١)

لكنه ساعة الدفن ، خرج عن رزانته ، فاغرورقت عيناه ، برغم ما بذل من جهد صادق لضبط مشاعره .

لقد جلب له موت امه ، مثل زواج خليبته من ابن عمه ، جلب له الحزن ..

وكان أول شيء عمله بعد الانتهاء من تقاليد الموت ، ان علّق على باب بيت امه اعلانا "للبيع" ليمكنه نصيبه منه ، ان يعيش حياة الاعيان ، اطول مدة ممكنه . (٢)

وفي "السكريه" ، يحدث موت الأمْ ، مزيدا من الأحزان لأولادها واحفادها ، ويضاعف الفراغ الذى خيّم على البيت ، بموت ابنها ، وزوجها ، وثلاثة من احفادها ، ويغير معالمه ، ويدفع بكمال الى الاغراق في التأملات ، " لعلك تقول غدا بحق ان الموت استأثر بأحب الناس اليك ، ولعل عينيك ان تدمعا حتى يزجرك المشيب . والنظر الى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانطيقية طفليه ، والأجدر بك ان تنظر اليها في ملهاة كدراما ذات نهاية سعيدة هي الموت . ان الأمْ تموت وقد صنعت بناء كاملا ، فماذا صنعت انت ". (٣)

وفيما الأمْ تحتضر بعد اصابتها بالشلل ، وأفادة الطبيب انها لن تعيش سوى ساعات ، يصل نجيب محفوظ عن طريق تصرفات كمال وياسين ، الى تقرير واقعية الحياة بأمسها المولى ، وغدها الواعد . " يخرج الأخوان من البيت ، وعلى غير عادته ، لا يذهب ياسين الى القهوة ، بل يسير مع اخيه كمال لشراء حماز لحفيده ، بينما يشترى كمال رباط عنق اسود ، اذ ان الرباط الذى استعمله عاما حدادا على والده ، قد استهلك ، ويلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين ". (٤)

---

(١) السمان والخريف — ص ١٢٠
(٢) " — ص ١٢٦
(٣) السكريه — ص ٣٨٩
(٤) " — ص ٣٩٥

وفي "السراب" ، يأخذ موت الام ، صفة الفجيعة ، وما يترتب عليها من تغيير اساسي في النفسية والتصرف ، كالمرض ، والهروب ، ونيّة التصوف الروحي والجسدي .

اذ ان موتها ، يمثل ذروة المأساة في حياة ولدها كامل رؤبه ، الذي لم يستطع أن ينتزع نفسه من حضنها حتى وهو في حضن زوجه .

كانت كل شيء في حياته ، وكان كل شيء في حياتها ، ولما فجع الولد بخيانه زوجه ، وموتها ، عاد الى امه منكسرا ، وصارحها بأنها شامتة به - وكانت ترقد في فراشها من نوبة تلبيسة اصابتها اثر شجارها مع كنتها - وبلغها انه سيرحل ، ولن يعيش معها تحت سقف واحد ، ولتعتبره من الاموات .

وتنتحب الام وتنام ، بينما يخرج الولد الى الشارع وينام في المقهى ، حتى ما بعد الظهر ، فيلتقيه زميل له ويعزيه ، وهو لا يدرى انه يعزيه بأمه ، وحين يقرئه النعي في الجريدة ، يعتبر الخبر كذبا ، وعبثا سخيفا ، اراد احدهم ان يداعبه به " حملقت في وجه صاحبي كالمجنون ، ثم اعدت تلاوة النعي وجميع جسمي ينتفض ، وصرخت بلا وعي هذا محال ... هذا كذب ."(١)

ويذهب الى البيت ويرى سرادق المأتم بعينه ، فيجن " لم اكن حزينا او متألما ، وانما كنت مجنونا "(٢) فقد اعتبر نفسه قاتل امه ، لانه خيّل اليه انه سمعها قبل مغادرته المنزل في الصباح الباكر ، ولم يلبّ نداءها ، فتصيبه الحمى ، ويقع مغميا عليه ، ويظل ثلاثة ايام في غيبوبة ، تتخللها احلام مزعجة ، وحين يستيقظ يرى اخته واخاه بجانبه ، ويهتف متألما " قضى الله بألا أشيع لا امي ولا زوجي الى مرقدهما الاخير "(٣)

وبموت امه ، يحسّ كامل بأن الحياة موحشة ، كالموت ، ويشعر بفراغ مخيف ، خلا البيت ، وخلت حياته ، وخلت الدنيا جميعا . وكان في حياتها يجد طمأنينة راسخة ، ويشعر في اعماق

---

(١) السراب - ص ٣٥٨
(٢) " - ص ٣٥٩
(٣) " - ص ٣٦٤

قلبه ، بانه مهما نكدت الدنيا ، فله فيها حجرة دائمة الاشراق بالابتسام والحنان .

ويقرر ان يهرب من واقعه ووحدته ، بالتصوف جسدا وروحا .

* وفي "الطريق " يؤذن موت الام ، ببداية حياة جديدة للولد ، حياة لم يهيأ لها ، ولم يألفها ، وليست طبيعية في أى حال ، فقد كانت امه قوّاده ، وابعدته عن حياتها في مدرسه داخليه ، وتكفلت بكل مصاريفه ، ففرغ هو لامتاع شبابه اليافع ، لكنها وهي تحتضر بعد خروجها من السجن ، تعترف بأن له ابا حيا ، وانه يحب ان يذهب اليه ، والا اضطر للعمل برمجيا او بلطجيا او قوّادا "

- " لعله قد مات ..

- ولعله حي

- وهل اضيع عمرى في البحث عن شيء ، قبل التأكد من وجوده ؟؟

- ولكنك لن تتأكد من وجوده الا بالبحث ، وهو خير على أى حال من بقائك بلا مال ولا عمل ولا امل . " (١)

تعطيه امه صورة زفافها من ابيه ، ووثيقة الزواج وفيها اسمه ، وتخبره انها هربت منه منذ ثلاثين سنه وهي حامل . وربما كان الاب الآن في الاسكندريه ، او القاهرة ، أو أى مدينة مصرية اخرى .

وفي المقبرة يهم بالانحناء فوق القبر وهو مغرورق العينين ، برغم تجلده امام الرجال (الخنازير) الذين اتوا يعزونه ، لكنهم في الواقع يدارون شماتتهم به .

ويلخص حالته النفسية ، حين عودته للبيت : " في شقة الجيران موسيقى ومدعوون ، وفي بيته القرآن يتلى في غرفة المرحومة ، اين هي الحقيقة واين هو الحلم ؟ امه التي ما تزال

---

(١) الطريق - ص ١٢

نبرتها تتردد في اذنك قد ماتت ، وابوك الميت يبعث في الحياة ، وانت المفلس المطارد بماض ملوّث بالدعارة والجريمة ، تتطلع بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام " .(١)

ويبدأ حياته الجديدة ، ببيع غشه ، ويقرر الانتقال للقاهرة للبحث عن ابيه ، ويضع اعلانا في الجريدة ، متوقعا ان يتصل به سيد سيد الرحيمي .. ولكن عبثا ، وتمضي حياته يوما بعد يوم في الانتظار ، " لو انشأتك امك نشأة مناسبة ، لكنت اليوم قوادا سعيدا ، لكنها صانتك في النبي دانيال ، لتتعذب ابد الدهر ، ثم احيت اباك ، لتحرمك نعمة اليأس ." (٢)

وتدخل حياته في القاهرة امراتان : كريمه ، زوجة صاحب الفندق ، وهي امتداد حي لأمه فيما تهبه من متعة ، وفيما تورثه من جريمة . والهام ، الصحافيه ، تجسيد لأبيه فيما تعده ، وفي انها حلم عسير التحقيق .

---

(١) الطريق ـ ص ١٨
(٢) " ـ ص ٩٠

٣ — مـــوت الأولاد :

أ — اســـبابه .
ب — آثاره النفسية والاجتماعيــة .

أ — الاســـباب :

١ — الاغتيال السياسي : فهمي عبد الجواد في رواية "بين القصرين" ، يقتل فـــي احدى المظاهرات السياسية ، اثنـاء ثورة سنة ١٩١٩ .

٢ — المـوت بالســل : رشـدي عاكـف في رواية "خان الخليلي" ، يموت بالسل ، لانه لم يتبع ارشـادات الطبيب ، بالانتقـال الى المصحة ، خوفا من الفضيحـــة الاجتماعية ، ومن فقـد الوظيفـة .

٣ — المـوت بالتيفوئيد : ولـدا عائشة شوكـت ، الحدثان ، يموتان مع والدهمـــا بالتيفوئيـد ، في رواية "قصر الشـوق" .

٤ — الموت اثناء الولاده : نعيمه ، ابنة عائشـة ، المصـابة بقلبها منذ ولادتهـــا ، تموت في رواية "السكريه" ، وهي تضـع مولودهـا البكـر .

ب - الاثر النفسي والاجتماعي :

اغتيل " فهمي عبدالجواد " في مظاهرة سياسية ، وتبلغ الوالد موته من رفاقه الشباب ، وكان رد فعله الأول ، عدم التصديق ، " كيف اصدق ان فهمي مات حقا ، فهمي الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية واملا وسرورا ، مات .. مات !! لن اراه بعد اليوم لا في البيت ولا في أى مكان من ظهر الارض ، كيف يكون البيت من دونه ؟ كيف اكون انا بعده " ؟؟

ان الاب الجبار ، البطاش ، يقف امام الموت متألما ذليلا ، لم يعد ثمة امل الآن في الصبر .. آه هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا .. كنت تخدع احيانا ، فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليوم ، هذا هو الألم حقا .

وتخونه تدماه وهويهم بدخول بيته ، وهو الذى كان يدخل بيته ، فتخون الجميع اقدامهم ، لرهبته وسطوته ، ويقف امام البيت حائرا " أتأمر بمنع الاصوات كما امرت بمنع الزغاريد من قبل ؟ ام تصوت بنفسك ؟ ام تدعو النائحات ." (١)

أما الأم - ونلتقيها في رواية قصر الشوق ، وقد مضى على ثكلها خمس سنوات - فقد زادها موت ولدها سلبية ، فهي تلوم نفسها ، انها تعيش بعده ، " ثمة ما هو افظع من النسيان ، هو تمتعك بالحياة ، وحرصك عليها ." (٢) وتمثل هذا الحرص ، في تعلقها بكمال - ابنها الثاني - الى حد ضايقه ، واستفزه للذود عن حريته وكرامته .

والحق الانساني الوحيد ، الذى حصلت عليه ، هو حق الغضب ، وزيارة القرافة والسكريه .

---

(١) بين القصرين - ص ٥٧٥ - ٥٧٧
(٢) قصر الشوق - ص ١٨٢

وبالنسبة لكمال ، فان " مقتل فهمي ، ودخول الموت الى عالمه ، وموقف ابويه من فهمي واستشهاده ، كانت من العوامل التي كونت شخصيته المتأملة المتشككة . كثيرا ما تساءل عن حقيقة امرهم ، أهم " متهورون " كما تزعم امه ، ام هم ابطال فدائيون كما يقول فهمي ؟ ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تنقشر عناصره الجوهرية في نفس كمال بلا وعي او قصد فتغدو اسماء ، سعد زغلول ، الانجليز ، الطلبة الشهداء ، المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموجهة في اعماقه . (١)

لذلك أصبح كمال وفديا عقائديا ، فقد تلقى الوفدية عن فهمي ، واقترنت في قلبه ، باستشهاده وتضحيته ، وربما أثرت تضحية فهمي في حياته ، بتضحيته هو في حبه " فهمي نحى بحياة واعده في سبيل ميتة رائعة ، وحبي هو شهادة للدنيا ضد المتشائمين من خصومها ، علمني ان الموت ليس اعظم ما نخاف ، وان الحياة ليست ابهج ما نبتغي ، وان من الحياة ما ينحط ويفتر حتى يلتمس الموت ، ومنها ما يرق ويشرى ، حتى يهفو الى الخلود . " (٢)

وفي رواية " خان الخليلي " ، ينزل موت الولد الشاب بالعائلة ، الحزن والألم ، وبناء على رغبة الأم الثكلى ، تقرر العائلة ان ترحل عن الحي : هذا حي شؤم ، جئته على كره مني ، وما أحببته قط ، وفيه مرض ابني ، وفيه قضى ، فدعنا نهجره بغير أسف . " (٣)

والواقع ، ان الأب ، قدر ان يداوى جرحه بالايمان ، أما الأم ، فقد ذهلت في حزنها عن كل شيء حتى الايمان . وكانت تخاطب ربها " ما ضر دنياك لو تركت لي ابني " ، وأصرت على ترك الحي ، الذى كانت العائلة قد لجأت اليه ، هربا من الغارات الجوية التي كانت تصف مصر ، أبان الحرب العالمية الثانية .

---

(١) شكرى غالي — المنتمي — ص ٢٢
(٢) قصر الشوق — ص ١٨٦
(٣) خان الخليلي — ص ٢٦١

وبكثير من الجهد والعناء ،يجد احمد شقة خالية بحي الزيتون ،تنتقل اليها العائلة ، ومعها احزانها ،وكآبتها ٠

وفي رأى غالي شكرى : " انّ احمد ـ الاخ الكهل ـ قد ذهب ضحية رشدى ،الـذى وأد ـ من حيث المظهر ـ أمل اخيه ٠ فرشدى احب ،وخطب الفتاة التي احبها الكهل ، ثم مات دونها ، فاصبحت محرمه عليه ،وبموت رشدى ،بات احمد هو المعيل الوحيد لوالديه ، وغدت الدرجه السابعة ، هي آماله ومبتغاه ،وتحول احمد الى كتلة من الماضي " "من الجذور" "من الزمن " ، ومات معنويا ". (١)

حتى أخبار الحرب والغزو المرتقب لمصر على يد روميل ،وما يمكن ان يحدثه الغزو من خراب ودمار ،لم تحرك عند احمد عاكف ،غير شعور بلذة خفية عكستها اعصابه المتوترة ، كأنّ ذاك الغزو المرتقب سيبيد فيما يبيد ،احزانه وآلامه ،وسيمحو فيما يمحو من آثار الماضي ، آثار ماضيه ٠

وفي " الثلاثية " ،يختار نجيب محفوظ ،واحدة من امرح افراد العائلة ،واكثرهم حبا للحياة ،ليجعلها هدفا للترمل والثكل ،كأنه يريد بذلك ،ان يدلل ،على عبث الأقدار ٠ فلقد عاشت عائشة مع اسرتها ،حياة سعيدة رغيده ،كأنما الحياة لهوا خالصا ، هي غاوية غناء ،وابنتها نعيمه غاوية رقص ،ويشاركهما لهوهما ،زوج محب ،وولدان قرت بهما الأعين ٠

ويمرض الزوج والولدان بالتيفوئيد ،ويقرر الأطباء ان لا امل لهم ،ويقف كمال ـ صوت العقل المتفلسف ـ متأملا اسباب الموت " كما اختطف الانكليز حياة فهمي ،فانّ التيفوئيد سيختطف حياة هذه العائلة ،الانكليز او التيفوئيد سيان ،اوغير ذلك من الأسباب ٠" (٢)

---

(١) شكرى ،غالي ـ المنتمي ـ ص ١٣٠و١٣١
(٢) قصر الشوق ـ ص ٤٦٢

ونلقى عائشة ،في رواية " السكريه " ،بعد ثماني سنوات من فقد زوجها ،وولديها ،وكانـت قد اصبحت في الرابعة والثلاثين • نلقاهـا امرأة موليه ،اصابها تدهور وانحلال ، شحبت بشرتها، ونتـأت عظام وجهها ،وغارت عيناها ووجنتاهـا •

رجعت عائشة ،لتعيش في بيت ابيها ،ولتكسر تقاليد البيت الصارم ،والواقع ان " المـوت ، قد كسر تلك التقاليد ،فبعد ان كان التدخين رجسـا من عمل الشيطان ،اصبح بوسع عائشـة ان تدخـن علنا ،واصبح بوسعها ان تنقطع عن عمل البيت ،منصرفه الى القعود ،وحسو القهوه ، والتدخيـن • كـذلك منعت ابنتها نعيمـة ،ان تعمل بتقاليد البيت ،فتلم بواجبات ست البيـت " ان ابنتي لن تتحمل أى جهد فدعيها وشأنها ،لم يعد لي من امل في الدنيا سواها • " (١) والواقع انّ عائشـة احبت كل شيء يصدر عن وحيدتها : تدينها ،وصوتها ،والتصاق الفتاة بهـا الخارق للحـد ،ولم تطق ان تسمع عنها اية ملاحظة ،بل انها كانت تضيق بالنقد عامة •

واصبحت ام فهمي — بعد ان كانت السيدة المطاعة التي لا يرد لها طلب — معتادة أن تتحمل ما قد ينم عن ابنتها الثكلـى من جفاء في الرد ،او قسـوة في الملاحظة ،بصدر رحـب ، وعطف سمح ،وتغيّرت معاملة خديجة لاختها عائشـة تغيّرا كليا ،فلم تبدر منها طوال ثمانيـة اعوام ،كلمة واحدة تنم عن سخريه ،او خشونه ،خشوعا حيال تعاستها ،وخوفا من الاقدار التـي قضـت بما قضت ،واشفاقـا من ان تضع المرأة المحزونه حظيهما موضع المقارنـه •

والوحيد الذى كان يتجرأ على ان ينصح عائشـة بالتقليل من التدخين والقهوه ،هـو ياسين ،باعتباره مثلها ،فقد وليدا ،وكان هذا الفقدان ،السبب في مصالحة اهله لزوجه ، العواده زنوبـه •

---

(١) السـكريه — ص ٨

كانت العائلة ، تراعيها في المشاعر والتصرفات ، وتولي حالتها النفسية جل "الاهتمام ، وقد بلغ من تعالف اختها خديجة معها ، انها حثّت على ابراهيم شوكت ، وزوجها ، ان ينزل عن حقه المشروع في ميراث اخيه المتوفي ، لنعيمه ، فآل الميراث كله لعائشة ، وابنتها .(١)

وبمرور الزمن ، بدأ التغيير واضحا ، في تفكير وتصرف الأب الصارم ، السيد احمد عبد الجواد ، الذى قبل ان يزوّج حفيده عبدالمنعم ، التلميذ ابن الثامنة عشره الى حفيدته نعيمه ، لانه اعتبر زواج نعيمه ، سببا يخفف من لوعة قلب امها ، سمح السيد للصبيان ، في هذا الظارف ، ان يملوا اراداتهم على الكبار ، وان يتزوجوا قبل ان يتجاوزوا مرحلة التلمذة ، وهو الذى رفض فكرة اعلان خطبة ولده ، فهمي ، الذى مات قبل ان يجني ثمرة شبابه الغض .

وأحسّ السيد ، بأنّ العالم قد انقلب على رأسه ، وانّ دنيا اخرى عجيبة تشب ، "اننا غرباء بين أهلينا " (٢)

وتتزوج نعيمة ، وهي دون العشرين ، ابن عمها ، وابن خالتها ، وتذهب الى السكريه . ويفتح باب السكريه امام امها ، عائشة ، التي ظلت تتحاشاها . كان يمكن ان تتغير حياة عائشة بزواج نعيمه ، وما يمثل هذا الزواج من خصب واستمرار ، لا سيما وانّ نعيمه حملت ، ومجيء الاحفاد ، يعوّض عن خسارة الاولاد ، عاطفيا ، وعمليا ، الاّ انّ ما كان يخشاه الجد المتأمل برحمة الله ، العارف بأنّ نعيمة ولدت ذات قلب ضعيف ، وانها لن يمتد بها العمر ، في رأى الطب ، الى ما بعد العشرين ، قد حصل : ماتت نعيمه اثناء الطلق .

---

(١) السكريه - ص ٢٨
(٢) " - ص ١٤٤

وكان موتها كارثة ،ضجت الحجرة بالصوات ،ولطمت خديجة — حماتها وخالتها — خديها ، وتشهدت جدتها امينه في وجهها . أما عائشة ،فرمت بناظريها من النافذة المطلة على السكريه ، وتردد صوتها كالحشرجة . "ما هذا يا ربي ؟ ما هذا الذى تفعله ،لماذا ؟ لماذا ؟ اريد ان افهم ".(١) وطلبت من الجميع ان يخرجوا من الغرفة ،لانه لن ينفعها الكلام . وكانت نعيمه ،كل ما تبقى لها ،فلم يبق لها شيء في الدنيا .

ويرد الجميع الى واقع الحياة ،ايمانهم بقضاء الله الذى لا بد منه ،الا الام ،التي انقطعت عن الدنيا ،وعن الناس ،ولزمت البيت بالاسود " لا استطيع ان ارى السكريه ،ولا معارف لي ، لم يعد لي معارف ،لا اطيق زيارة احد " (٢)

وادمنت شرب القهوة والسجائر ،ولم تعد تأكل الا لقمات .. انقلبت هيكلا عظميا كسي جلدا باهتا ،واخذ شعرها في السقوط ،وتكالبت عليها العلل ،حتى اشار عليها الطبيب بالتخلص من اسنانها .

وكانت زيارة القرافه ،هي التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة ،كانت تنفق فيها بسخاء ، وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها ،من ميراث زوجها وابنتها ،حتى استحال حوش المقبره ، حديقة غناء ، موشاة بالازهار والرياحين .

وبازدهار المقبره ،اتخذ البيت القديم مع الزمن ،صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور ، انفرط نظامه ،وتقوض مجلسه .

ووصلت المأساة ذروتها في حياة عائشة ،عندما ورثت عن ابنتها " فضحكت ضحكات جنونيه ، واصبحت كمن اصابها مس من الجنون ،ولم تزل توغل في دنيا خاصة خلقتها لنفسها ،هي دنيا

---

(١) السكريه — ص ١٨٨
(٢) " — ص ٢٠٤

الوحـدة ،والتصقت بها عادة جديدة ،هي محادثة نفسها ،خاصة حين انفرادها ،ولكنهـا كانت تخاطب اصواتـا لا اشباحا ،وفي ذلك عزاء المحيطين بها .(١)

(١) السـكريه - ص ٢٣٦

٤ — موت الحبيب :

أثره النفسي والاجتماعي :

تندر في مجتمع نجيب محفوظ ، حوادث الحب الرومانطيقي ، واذا ظهرت بعض ملامح له ، فلعجز ونقص في شخصية المحب ، قاسى منهما في مختلف نواحي حياته ، فهو يحب ، ولا يستطيع ان يحصل على محبوبته (كمال عبد الجواد) ، واذا حصل عليها ، لا يستطيع الاحتفاظ بها (كامل رؤبه) .

يعرف كمال ، بعد ستة عشر عاما من فراقه لحبيبته اثر زواجها ، مصادفة ، ان عايده قد ماتت منذ عام . فيشعر بدوامه الفناء في رأسه ، وتصيبه دهشة ، وارتياع ، ويتمتم عاجزا " اني حزين يا عايده لأني لم احزن عليك كما كان يجدر بي ".(١)

ويلجأ في عجزه الى الأموات ، الى اخيه ، وأبيه ، وبنت اخته ، متسائلا : هل يمكن ان يعرفوها ؟ وهو الذى مشى في جنازتها ، وهو لا يدرى من هي . كان يقوم بواجبه ، كمدرس ، تجاه المفتش — زوجها الثاني — وكان نعشها ملفوفا بالحرير الأبيض ، حتى تهامس بعض زملائه . انها عروس ! وقد ماتت بذات الرئه .

ويفلسف الكاتب ، موقف كمال العاجز ، بأنه نتيجة لمرور الزمن " لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن او انتحر ، اليوم تمر به كخبر من الأخبار ." (٢)

ولكن كمال لم يجن ، ولم ينتحر ، امام ضياع الحبيبه بالزواج ، وحين لاحت له فرصة اخرى بالحب والزواج من بدور ، اخت عايدة ، أضاع الفرصة .

---

(١) السكريه — ص ٣٧١

(٢) " — ص ٣٧٠

ذلك ان كمال ، اضاع عايده ، لانه كان يمثل في مطلع حياته - كما يقول غالي شكرى - "الجيل الجديد من ابناء البرجوازيه الصغيرة المثقفين ، الذى يتخذ من التسامي سلما يعلو به على طبقته ، فالفكر . والحب الرومانسي ، هما الجناحان اللذان يحلق بهما عاليا فوق المجتمع ، بطبقاته ومشكلاته ، هما الجناحان اللذان يصلان به الى مستوى "الحب" المطلق والفكر المطلق". (١) لذلك حل "الفكر محل المهام ، فاستغرق حياته بنهم ، وغدت فرحة الافراح ان يعثر على كتاب جميل ، او يظفر بنشر مقاله .

وحين لاحت له بدور ، وكانت قد نزلت من علياء طبقتها الاجتماعية ، بخسران الاسرة كافة املاكها ، واصبحت توازيه اجتماعيا ، ظل جامدا في خطواته لا يتقدم برغم ملاءمتها له ، وقال لنفسه : ان المفكر لا يتزوج وما ينبغي له ، فلقد كان كمال ينظر الى فوق ، ويظن ان" الزواج سيحمله الى النظر الى تحت . " كان - وما يزال - يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في آلية الحياة ، وانه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله ، والى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي اسبوع دون مسرات فكرية ، ولذات جسديه . ثم انه حائر ، يداخله الشك في كل شيء ، والزواج نوع من الايمان ، كان يؤمن في اعماقه بأن" الزواج قبة لا حبه ، وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج ، فسيقضي عليه قضاء مبرما . (٢)

واكتفى كمال ، عندما علم بموت الحبيبه ، بأن يردد " سوف يمضي وقت طويل قبل ان يسكن جيشان هذا الصدر ، لا من الحزن والالم ، ولكن من الذهول والدهشة ، ومن خلو العالم من مباهج الاحلام ، ومن ضياع سر الماضي الساحر الى الابد . " (٣)

---

(١) شكرى ، غالي - المنتمي - ص ٣١
(٢) " - " - ص ٥٦
(٣) السكريه - ص ٣٧١

في رواية "أولاد حارتنا" ، تموت الزوجة الحبيبه بمرض ، ظلت تخفي آلامه عن زوجها الذى يصغرها كثيرا ، لانه كان منشغلا برسالته في الحي . وهي تخجل ان تثقل عليه ، حتى لا تعين اعداءه ، بغير قصد عليه .

قاسم — الزوج — ودّ لو يفتديها من الموت ، وساعة دفنها ، بكت جميع حواسه وجوارحه الا عينيه ، وتمنى في وحدته وألمه ، ان تكون ابنته كأمها لبية وحنانا ، "وعزاه وجودها لتظل رمزا باقيا للعلاقة المحبوبة التي مزّقها الدهر ." (١)

وتكون نتيجة وفاة الزوجة ، ان يترك الزوج الحي هربا من خصومه ، وكانوا يرهبونه ، بسبب نفوذ زوجته ، الأرستقراطيه ، الثرية .

ولم يطل الوقت بالزوج حتى تزوج بعدها ..

الموت يحزن الشباب ، لكنه لا يضطرهم لقبول حياة لا يرتضونها ، في حين يهزم الموت الشيوخ . وفي أقصوصة "القهوه الخاليه" ، من مجموعة "بيت سيء السمعة" ، يضطر ابن التسعين ، الذى فقد زوجته ، ان ينتقل للعيش مع ولده ، وكنته ، وحفيده ، فيفقد الكثير من حريته ، وسيادته . ويقاسي من حفيده الشرس ، مرارة بالغة ، ومع ذلك يصبر ، لانه لا بد من العيش مع احد اولاده ، بعد وفاة الزوجة الرفيقة ، والصديقة ، والمساعدة .

وينسب نجيب محفوظ ، هذا الموقف التعس ، للزمن ، " فالزمن بالنسبة للفرد هادم لذاته ، ومفني شبابه ، وصحته ، وهو القاضي على اصدقائه واحبابه ." (٢)

أما كامل رؤبه ، الجبان ، الخجول ، الضعيف ، الذى اقنعته زوجته الحبيبة ، ان تظل العلاقة بينهما علاقة براءه ، والذى ظل مؤمنا بطهر زوجته ، وبراءتها ، برغم انه ضبط معها رسالة رفضت ان تقرئه اياها ، ومزقتها ، هذا الانسان الجبان ، انقلب الى ثائر على نفسه امام

---

(١) أولاد حارتنا — ص ٣٩٧ (وقاسم طبعا هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزوجته هي خديجة)
(٢) شوشه ، فاروق — مع الأدباء ، نجيب محفوظ — مجلة الآداب — العدد ٦ — حزيران ، سنة ١٩٦٠ — ص ١٩

الموت ،وشك في سبب الموت ،فقرر ان يستدعي وكيل النيابة ،والطبيب الشرعي ،بعد ان اجتاحته ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه ،وبطش القضاء . أبى ان يصدق عينيه ،واستعصى عليه الاقتناع ،فلم يقتنع بادعاء الطبيب ان البيروتون تقبّ معه لسبب خارج عن ارادته ـ وهو قد تركها مريضة بالانفلونزا ـ " لن يهدأ خاطري حتى اعمل عملا ترتج له القلوب ،لقد تمخض خضوع العمر في " ،عن ثورة جامحة ،وغضب ناري ،وشر مستطير ،نسيت الجثة والحزن ،وتخايلت الشيا لين لعيني ،لتنقض الدواهي على رؤوس المجرمين .." (١)

ولكنه حين يكتشف ان " المجرمة " ،لم تكن سوى زوجته ،وان العملية كانت عملية اجهاض ، تنازعته احاسيس متضاربة ،شطرته شطرين ،استحال قلبه بعد ان ترك بيت من كانت زوجته ، الى جمرة من نار ،يتطاير عنها شر الغضب ،والشقاء ،والمقت . ولكن كيف هان عليه ان يرسلها الى القبر مكفّنة بالفضيحة ،ألم يكن الاخلق به ،ان ينتهز الفرصة المبذولة ،فينقذ نفسه ، ويستر شرف المرأة التي أحبها واحبته .

وتظل الاحاسيس تصطرع في نفسه ،الى ان يتورم قلبه من الحقد والغضب ،ويجد في المصير الذى قضى على زوجته وعشيقها به ـ هي في القبر ،وغريمه في السجن ـ راحة وغبطة .

ويعود الى بيته بعد ان سكر ،فتقابله امه المريضة بالقلب ،والتي تشاحرت مع زوجته قبل وفاتها ، تقابله بالتعزية :

ـ " ليتني كنت فداءها .. كان ينبغي ان تبقى هي لك ..
ـ كذب !؟ محال ان يرضى انسان بأن يفتدى آخر من الموت .. أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة ." (٢)

---

(١) السراب ـ ص ٢٢٩
(٢) " ـ ص ٣٥٣

وينفجر غضبه في امه التي كانت كل حياته ، ويحنق عليها ، كما لو كانت السبب فيما حل من كارثه ، ويزيد من حنقه ، ما وقع في نفسه من انها تداري بهذا الحزن ، فرحا ، وشماته . ويخبرها انها قتلت اثناء اجهاضها ، وانه ليس والد الطفل ..

— " كامل .. رحمة بنفسك ، رحمة بي ، انت لا تدري ماذا تقول ؟
— بل ادري اكثر مما تتوقعين ، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جيل ، قلت لك انها اخفت الامر عليّ وذهبت الى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها .
— اللهم لطفك يا ارحم الراحمين .
— الا يزال ارحم الراحمين ؟ وداعا فلن اعبده بعد اليوم ". (١)

الله ، وامه ، الملجآن الوحيدان له في حياته ، مرفأ الراحة والصبر والسلوان ، كفر بهما في ثورته ، لقد نقلته حالة الموت والخيانة ، من النقيض الى النقيض . لكن هذه الحالة لم تدم طويلا ، ولما عاد اليه هدوءه ، عاد اليه جبنه ، واستسلامه ، وهروبه " لشد ما تعاودني تلك الرغبه القديمه في الهرب .. اين مني بلد بعيد لم يطرق ابوابه طارق ، من لي بأن اقطع كل صلة تربطني بماضي البغيض ؟ آه لو يمكنني ان اولد من جديد ، في عالم جديد ، لا تطالعني فيه ذكرى من ذكريات هذا العالم . اجل لن استطيع ان اواصل حياتي ، على حين يتبعني هذا الماضي كالظل الثقيل ". (٢)

وأمّا العالم الذي رغب فيه ، فهو عالم التصوّف " حيث يستحم جسدي بماء عطر ، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ، فلا مشهد ارنو اليه الا السماء ، ولا خاطر ينبثق في نفسي الا الله ". (٣)

---

(١) السراب — ص ٣٥٤
(٢) " — ص ٣٤٩
(٣) " — ص ٣٦٦

٥ — الانتفاع من الموت :

فيما عدا حالات الوراثة ، يجد بعض افراد المجتمع في الموت ، بابا للرزق ، حلالا أو حراما : التربي ومساعده ، والسقاء ، والعميان المرتلون ، يعيشون كلهم من الموت ، والموت بالنسبة لهم أكل عيش ، " بعد ان خرج التربي ومساعده من الفوهه الترابيه ، اقبلا يسدان القبر ، ثم يسويان الأرض في نشاط وحيويه . ونادى السقاء على الماء ، ورتل العميان ، ثم ردد رئيسهم التلقين ، وتقدم التربي منه خطوات ، عند ذاك قال الواقف الى يمينه " دعه لي فلا تحاسبه ، اني ادرى بهؤلاء الناس . (١)

تجار يساومون ، وينتفعون من الموت بالحلال . وهناك سارقو القبور ، ضحايا الفقر ، الذين يغزون الأموات ، ذوي الأسنان الذهبية ، فيستولون على اسنانهم . وفي رواية " زقاق المدق " ، نتعرف على صانع العاهات ، ودكتور الأسنان ، اللذين يتوجهان الى المقبرة ليسرقا اسنان الميت الذهبية ، ومع ان هذه المخاطره ، لم تكن الأولى من نوعها ، الا ان فؤاد الدكتور كان خافقا ، وريقه جافا ، واعصابه متوترة ، في حين جلس زيطه جامدا ، رابط الجأش ، لا يبالي شيئا . كان الدكتور يدخل القبور على كره ، ولطالما ناشد زيطه ان يعفيه من دخول القبر ، لكن الآخر أبى ان يؤدى له هذه الخدمة ، الا اذا شارك في جميع خطواتها ، مستلذا في اعماقه ، تعذيبه . ويقبض عليهما ، ويشيع خبرهما بين اهل الزقاق ، فيقابل بالدهشة والانزعاج ، وتصاب سنيه ، العروس العجوز ، بالاغماء ، بعد ان ركب لها الدكتور طقما ذهبيا . (٢)

وكما ينتفع افراد المجتمع من الموت ماديا ، ينتفع البعض الآخر في ازالة غمه عن القلب ، والتخلص من هاجس حالة نفسيه . وفي اقصوصة " صوره " من مجموعة " خمارة القط الأسود " ،

---

(١) الطريق — ص ٦

(٢) زقاق المدق — ص ٢٤٣ و ٢٤٥

تحس الزوجة بما يشبه نعم الارتياح - لولا رهبة الموت - وهي تطالع صورة خادمتها ، التي طردتها منذ خمس سنوات ، في الجريدة ، قتيلا . ونفهم من حوارها مع بنتها ، سبب طردها ، ومن ثمّ ارتياحها لغيابها الدائم :

- " مسكينة كنت احبها ، وبابا لم يرغب ابدا في طردها ..

وقطبت الامّ عند ذكر " بابا " وغامت عيناها بذكريات مقلقه ، فيما بدا ، وقالت بصوت جاف ..

- كفى ، الله يرحمها وكفى ".(١)

وبرغم الاضطراب الذى اعترى السيد أنور حامد ، الا ان صورة الفتاة القتيل ، تعيد الطمأنينة ، والراحة اليه . وكان الرجل قد اغتصبها وهي عذراء ، ثم اضطر حين حملت ، ان يتزوج منها زواجا عرفيا ، الى ان نجح في اجهاضها وطردها . ظهرت صورتها وهو شارع في الزواج ، فكان ذلك ايذانا بنهاية متاعبه ، وبظهوره بمظهر الرجل النظيف امام الناس والاهل .(٢)

---

(١) خمارة القط الاسود - ص ٢٣٥
(٢) - - - - ص ٢٣٧

الفصل الثاني

الموت في نطاق المجتمع والعلاقات العامة

١ ـ القتل الانتقامي .
٢ ـ القتل الاجرامي .
٣ ـ شهداء وضحايا .
٤ ـ موت العاشق الشاب .
٥ ـ الموت بحادث .
٦ ـ موت الزعيم .
٧ ـ الانتحار .

توطئــــــــــه

لمّـا كان أدب نجيب محفوظ ، يعبر عن مرحلة تفسخ البرجوازية وانهيارها ، وينقـــــد هذه الطبقة بمنتهى المرارة ، ويكشف القناع عن وجهها الدامي ، عن انانيتها ، وجشعها ، ولا اخلاقيتها ، فأنه من المنطقي ، ان يكون لمثل هذه الطبقة ضحايا ، وضحاياها هم أبنـــاء الطبقة المتوسطة الصغيرة ، الذين يصارعون للتسلق ، وغالبـا ما يبوء هذا التسلق بالأخفاق ، والأخفاق غالبـا ما تكون نهايته المـوت .

ثمّ ان نجيب محفوظ ، يكتب عن مرحلة النضال الدامي من اجل الحرية والأستقـلال ، عن مرحلة وجود محتل على ارض مصر ، متآمر مع الأقطـاع والرجعية ، مستبيح لنفسه ان يستثمر كل طيبات مصر : " اللحم والفاكهة والنساء ! " (1) ولمقاومـة هذه القوة الطاغية ، لا بـــد من وجـود ضحايـا .

ضحـايا يموتون بدافع الأنتقـام ، بدافع الأجـرام ، بدافع التقاليـد ، بدافع قمـــع المظاهرات ، بحوادث السيارات ، وضحايـا ينتحـرون ..

---

(1) خان الخليلي ــ ص ١١٥

١ – القتل الانتقامـــــي :

أسبابه ونتائجــــــه :

للقتل الانتقامي اسباب ، ينبع بعضها من تركيب المجتمع الطبقي ، وفجيعـــة أفراده بنماذج منه ، يتخلون عن كل ما هو شريف ونظيف في هذا العالم ، وينبع بعضهـا من تقاليد هذا المجتمع ، في العيب ، والشماتة ، والحرام ، والثأر ، وينبع بعضها الاخر ، من حدة الطباع ، كرفض المزاح الثقيـل مثلا ، أو الغـيرة .

في رواية "اللص والكلاب" ، يواجهنا نجيب محفوظ دفعة واحدة ، بسعيـــد مهران ، وهو في قمة ازمته ، بعد ان فقد اربعة اعوام من عمره غدرا ، وفقد زوجتـــه ، وكتبه ، وانكرته ابنته ، واحتقره وطرده مشجعه الأول على السرقة ، الذى اصبح صحافيـــا لامعا ، ثم يسير بنا معه ، ليؤكد هذه الأزمة طولا ، وعرضا ، وعمقا ، حتى يصبح سعيـد مهران ، وثيقـة احتجاج صارخـة ضد الظلم ، والضياع ، والخيانـه .

هو ضد عليش ، صديقه ، الذى داس على الصداقه ، والأمانة ، والأخوة ، في سبيـل الحصول على منصب سعيد ، وزوجته ، وهو لذلك يريد ان يقتلـه .

وهو ضد نبويـه ، زوجته وحبيبته ، التي داست على الحب ، والأبنة ، والزوج ، تحقيقـا لنزواتها ، وارضـاء لنوازع الخيانـة الخبيثة ، التي ركبت في اعماقها .

وهو مع رغبته في قتلها ، يبقي على حياتها ، من اجل ابنته : " بفضل سناء وهبتـك الحياة ، لكـني احطـتك بعقاب اشد من الموت ، هو الخوف من الموت ، الذعر الأبدى ." (١)

---

(١) اللـص والكـلاب – ص ٧٨

وهو ضد رؤوف علوان ، مثله الاعلى ، الذى داس على مبادئه ، في سبيل صعوده السلم ، منحرفا بذلك عن جوهره ، بعد خروجه من المعتقل .

وهو لذلك ، يريد ان يقتله ، " لانه رمز الخيانة التي ينضوى تحتها عليش ، ونبويه ، وجميع الخونة في الارض .. والرصاصة التي تقتل رؤوف علوان ، تقتل في الوقت نفسه ، العبث ، والدنيا بلا اخلاق ، ككون بلا جاذبية ..(١)

وفي رأى صبرى حافظ ، "ان" ماساة سعيد مهران الحقيقية ، هي انه بقي وحده ، في عالم الضياع ، برغم تأييد الملايين له ، لقد ناضل ولم يستسلم ، فكان الصراع بين الانسان النظيف ، الذى لا يجد حتى قطرة هواء نقية يتنفسها ، وبين عالم كامل من الخونة والاوغاد ، بين الثائر الفردى ، وعالم الخونة الاجتماعي ، صراع فرد نواياه طيبه ، ولكن ينقصه النظام ، ضد عالم من الخونة محكم التنظيم ..(٢)

لذلك ، كانت رصاصاته دائما تخطيء الهدف ، وتصيب الابرياء ، فعندما اطلق النار على عليش ، كان القتيل شخصا آخر ، عاملا بريئا ، اسمه شعبان حسين " أى هزيمة جنونية ، أى جريمة بلا جدوى ، وسيطارده حبل المشنقة وعليش آمن ، هذه هي الحقيقة ، كأنها جوف قبر انكشف ..(٣)

وعندما اطلق النار على رؤوف علوان ، كان القتيل البواب ، برىء ضعيف آخر " أما مسدسك فالظاهر انه لا يقتل الا" الابرياء ، وستكون انت آخر ضحية له ..(٤)

وبالفعل ، كان سعيد مهران ، الضحية الاخيرة في اللص والكلاب ، لجأ اخيرا الى القرافة ، فحوصر فيها ، وخيّر بين الموت ، وبين الوقوف امام العدالة ، فازدرى الموت ، وقاوم بالرصاص ، ورأت

---

(١) اللص والكلاب - ص ١٤٢
(٢) حافظ ، صبرى - الاتجاه الروائي عند نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد الحادى عشر ، نوفمبر ، سنة ١٩٦٣ - ص ٤٨
(٣) اللص والكلاب - ٨٦
(٤) " " - ١٤٦

عيناه المعذبتان بالخوف ، شبح الموت يشق الظلام ،وجفلت سناء بلا امل ،وكانت النتيجة انه استسلم بلا مبالاة .

لقد اراده نجيب محفوظ ،ضحية رمزا ، فئة طابقة من المجتمع ،طبقة اضعف منها " ان من يقتلني يقتل الملايين ،انا الحلم والامل وفدية الجبناء ،وانا المثل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه ."(١)

وفي الاقصوصه القصيره "الوجه الاخر" ،من مجموعة "تحت المظلة" ،يظهر هذا الصراع الطبقي ،بمأساويه فاضحه ،حيث يقتل رجل الامن ،أخاه ،للمحافظة على عمله ،وتقدمه . فأخوه في نظره " اعتدا ،برمجه ،بلطجة ،مخدرات ،عربدة ،سرقه ونهب ،وقتل اعراض ."(٢)

ولم يكن الاخ ،ليقتل اخاه ،لولا انه يريد ان ينتقم ،وان يتسلق ،وليدس في طريقه من يعترض هذا التسلق ،ولو كان أخاه .

وأخوه ،في رأى صديق الطرفين ،المربي الفاضل :

- "ليس كائنا من جنس آخر غير جنسنا ،الحكاية انه اسير الاهواء التي وفقنا الى كبحها ..
- شرير بطبعه ..
- الافضل ان نقول ان ثمة معاملات صادفته داخل البيت ،واخرى في الطريق .
- هو الفرق بين المدنيه والوحشيه ."(٣)

---

(١) اللص والكلاب - ص ١٤٨
(٢) تحت المظلة - ص ٥٢
(٣) " " - ص ٥٢ و ٥٣

والواقع ان رمضان — الشرير — ،استولى على عروس عثمان — رجل الأمن — ،فحرمه من حياة اجتماعية ،بلا فضائح ،ولا عيوب . وهو الآن ،بمسلكه ،يهدده في عمله ،وامكانية ترقيته ،لذلك فلا بد من القضاء عليه .

ويتصارع الأخوان ،ويقتل رجل الأمن ،أخاه ..

وتكون نتيجة القتل ، ان يسقط رجل التربية ،صديق الأخوين ،عن درجات سلم التسلق ،وان يختار الهروب من دنيا الصراع ،بالانزواء : " سأنبذ التربية ،والقواعد ،والطقوس ، لقد اضعت ايامي في صحبة العقلاء ، سألهو بالأشياء العتيقة ، سأعزف عن العقلاء الشرفاء ، وليجرفني الدوار . فليكونوا سعداء نافعين ،ولأكن مجنونا محرّبا ."(١)

ويتكرس الرجل ،ضحية جديدة ،من ضحايا المجتمع ..

وفي اقصوصة " حلم نصف الليل " ،من مجموعة " بيت سيء السمعة " ،تدفع الغيرة بالولد ، لأن يقتل ازواج امه ،واحدا تلو واحد ،دون ان تبدو عليه صفة القاتل ،ولا سماته .

نعباس ،في العشرين من عمره ، طيب القلب جدا ،تلوح في عينيه الواسعتين ،نظرة صامتة ،ولعلها ناطقة بلغة مجهولة . يبتسم كالأطفال ،ويطلق شاربه ولحيته ،ويحبهما ،وهو امي ،لم يحصّل في الكتاب حرف ،ولذلك فتح له ابوه دكانا من دكاكين العمارة ،لبيع الحلوى ،والفول السوداني . فكان يغدق على الأطفال بغير حساب ،ولما تزوجت امه من حسنين ، غاب عن الحي اياما ،ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

---

(١) تحت المظلة — ص ٦٤

ـ " لا يصح ان يحل محل الأب رجل آخر ..

ورفع رأسه نحو مسكن امه وصاح بأعلى صوته :

ـ يا ام عباس ... الله يسامحك ..." (١)

العريس الاول ، قتل بعد منتصف الليل ، دون ان يعرف قاتله ، وكان بعد زواجه من الأرملة الثرية ، قد اضطهدها ، واضطهد ولدها عباس .

وتتزوج المرأة مرة اخرى ، من شاب بدا لطيفا ، وانتهى بأن استولى على اموالها ، وشارك ولدها دكانه . ويقتل هذا الآخر ، بالطريقة نفسها .

ويكتشف بيومي اللبان ، ان القاتل ، هو عباس المسالم ، وذلك باعتراف القتيل الثاني ، لكنه " عند التحقيق نسي كل شيء ، وتلك ارادة الله !" (٢)

الزوجان ، ذهبا ضحية طمعهما بمال الأرملة ، أي انهما كانا يريدان ان يتسلقا ، والولد ، قتل بدافع الغيرة ، والمحافظة على امه ، وأموالها ، أي انه لم يرد لنفسه السقوط درجة عن السلم .

وفي اقصوصة " معجزة " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يموت انسان ، ضحية مزاح اراده بريئا ، هو نوع من عبث السكارى . فعندما رغب رجل وحيد ، في حانه ، ان يتسلى ، اخترع اسمين غريبين ، ونادى الغارسون يسأله عن صاحبيهما ، فنودي على احدهما بالميكرفون وطلبه الآخر بالتلفون . ومنذ تلك اللحظة ، طفق الرجل يبحث عن تفسير لهذه الظاهرة المحيّره . قالوا له ، اما ان تكون مصادفة خارقة جدا ، واما ان تكون ظاهرة طبيعية جدا .

---

(١) بيت سيء السمعة ـ ص ٢٢

(٢) " " " ـ ص ٣٣

ولم يقنع بالتفسيرين ، كان يريد تفسيرا خليقا بأن يرفعه درجات ، بأن يغيّر وجه حياته ، بأن ينتشله من همم الحياة ومآزقها . كان يريد تفسيرا ، يساعده على التسلق ، ويعده بالقوة ، والنور ، والامتياز . (١)

لقد قنع عمرا طويلا ، بأن يكون كاتب حسابات ، يقتصر عمله على التعليمات المالية ، لائحة المخازن ، والمشتريات والأوامر المنفذة لها .

وفي بحثه المضني عن معجزات يحققها ، يكتشف ان المعجزة الأولى التي حققها ، لم تكن سوى عبث سكران برئ ، اراد ان يمازحه . فيغور امله بالحياة ذات الامتيازات ، وبالقبر المبارك بعد الموت ، وينقض عليه بدورق النبيذ ، يجرحه ، ويجهز عليه بالشوكة ..

وتسقط ضحية جديدة ، من ضحايا التطلع الطبقي .

وفي اقصوصة " وجها لوجه " ، من مجموعة " بيت سيء السمعة " ، ينهال صعيديان من انبوب ، على رأس ماسح الأحذية ، الطيب ، الذي لا اعداء له ، بالهراوات ، ولا يتركانه حتى يلفظ انفاسه . حصل ذلك ، في الشارع العام ، امام الناس .

سبب القتل ، ثأر قديم ، عمره عشرون سنه . فمنذ ذلك التاريخ ، هرب الصعيدي من بلده ، الى القاهرة ، في محاولة للنجاة ، الا ان العداوة القديمة لم تمت ، ومات الانسان ، " حكاية لم تعد تدهش احدا " .

العداوة القديمة في المجتمع الصغير ، ذهبت بحياة الانسان ، وفي المجتمع الدولي ، تذهب العداوات بملايين الناس ، بسبب الحروب .

---

(١) خمارة القط الاسود — ص ١٣٣ و ١٣٥

ـ "ولكن لماذا تقع الحروب ؟؟
ـ العداوات ، الألمان يستعدون لهذا اليوم منذ اكثر من عشرين سنه .
ـ عشرون سنه ،اذن كيف يمكن ان تنسى عداوه .!؟
ـ الناس لا ينسون العداوات ،ولكن من حسن الحظ انهم يتزوجون رغم ذلك!".(١)

عشرون سنه ،خمس عشرة سنه ،ما هم !! ففي اقصوصة "كلمه غير مفهومه" ،من مجموعة "خمارة القط الأسود" ،بطل حسونه ،ابن الفتوة ،الذى قتله المعلم حندس ،منتظرا خمس عشره سنه ،ليفتك بقاتل ابيه وسط اعوانه ،الذين لا يعرفون من اين أتت الضربه ،ولا كيف صرع المعلم .

النتيجة : "شعور بعجز مهين ".(٢) الا انه لو ظهر القاتل لهم لما توقفت النتيجة على الشعور ، ولتعدته الى ممارسة القتل ،كما حدث في اقصوصة "المجنونه" ،من المجموعة نفسها . "ففي حارات الفتوات ،تنشب المعارك للسبب الخطير ،والتافه ،على السواء ،ربما لمجرد نكته ،او غمزه عين ،او نحنحة".(٣)

من بين المعارك التي ابتليت بها الحاره ،برزت معركة بروزا داميا لا ينسى . معركة غريبه ،فظيعه ،غامضه ،غطت على جميع ما سبقها ،أو لحق بها من معارك ،لذلك سميت بالمجنونه، وكان ضحايا كثيرون ،لم تبق اسره ، الا وفقدت رجلا ،أو اكثر .

وفي التحقيق ،لم يستطع المأمور ان يصل الى اسباب المعركة ،وبالتالي الى هلاك الحارة

ـ "هلكت الحاره لغباء غلام
ـ اوغباء رجل وهو الأرجح
ـ بل هو غباء الحاره وهو الأصدق".(٤)

---

(١) بيت سيء السمعة ـ ص ١٧٢
(٢) خمارة القط الأسود ـ ص ١٦
(٣) " " ـ ص ١٤٦
(٤) " " ـ ص ١٥٣

٢ ـ القتل الاجرامي :

أسبابه ونتائجه :

في محاولة لتقصي الأسباب ، التي حملت صابر ، بطل رواية "الطريق" ، على تنفيذ جريمته المزدوجة ، بقتل زوج عشيقته ، ثم قتلها هي ، يلجأ نجيب محفوظ الى استاذ جامعة ، وصحافي ، واستاذ بالخدمة الاجتماعية ، واستاذ علم نفس ، ورجل دين . فتبرز امامنا الأسباب الاتية :

١ ـ استاذ الجامعة ، قال : ان "السبب هو الزواج غير المتكافيء ، بين الزوج والزوجة .

٢ ـ كاتب يوميات الصحيفة ، قال : انه الفقر ، وان كريمة شهيدة لصراع الطبقات ، وفوارقها .

٣ ـ استاذ بالخدمة الاجتماعية ، ناقش نشأة صابر في احضان تاجرة اعراض ، ورواسبها في نفسه .

٤ ـ استاذ علم النفس ، قال : ان" صابر مصاب بعقدة حب الأم ، فهو اولا وجد في كريمة بديلا عن امه ، فأحبها . وان لا شعوره أصر على الانتقام لأمه ، فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطه ، وطمع في مصادرة امواله ، كما صادرت الحكومة اموال امه .

٥ ـ شيخ من رجال الدين ، قال : ان" المسألة في جوهرها ، مسأله ايمان مفقود ، وان" صابر لو بذل في البحث عن الله ، عشر ما بذل في البحث عن ابيه ، لكتب الله له جميع ما طمح اليه عند ابيه ، في الدارين .(١)

الأسباب اذن ، تنبع من عوامل اجتماعية ، وتربويه ، ونفسيه : ان" القواده ، التي هيأت لابنها حياة غنية ، رغيده ، لم تقدر ان تهيء له كرامة ، ولا عملا ، ولا سلاما . لذلك فهي تؤمله ، بأنه سيجد في كنف ابيه ، الاحترام ، والكرامة ، وسيتحرر من ذل الحاجة الى أ ى

---

(١) الطريق ـ ص ١٧٠

مخلوق ،بما سيبيء له من عمل ،غير البلطجة ،او الجريمه ،في الغرآخر الأمر بالسـلام ٠

أبوه ،الذى بعث حيا يم موت امه ،بعث صورة ،ووثيقـة زواج ،فصار امكانيه ،وحلمـا ، وصار املا ٠ ابوه هذا ،صار يمثل الخلاص من واقع مرير ،الى حياة افضل ٠ وفي سبيل الوصول الـى هذه الحياة الأفضل ،وفي اثناء الصراع من احل هذه الحياة الأفضل ،وقعت الضحايـا ٠

تمر الأيـام ،وهو يبحث عن أبيه ،وتكاد تنفذ نقوده ،وهو لا يزال يبحث ٠ وما دامـت عشيقته قد انقطعت عن لقائه ليليـا ،خوفا من زوجها ،صاحب الفندق العجوز ،الذى كتب كـل املاكه باسمها بعد وفاته ،وما دام هو بحاجة الى ماله ، والى جسدها ،فليقتله ،بالاتفاق معهـا "اليأس لا يدع لنا سبيلا ،ولا وقتا للاختيار ،يا عم خليل ،حتام تغالب النوم الأبدى ؟لماذا تصر على جرى الى مصير محتوم ؟ ما معنى ان تنعم بمالك ،سالب حياتك ،وان تسقط امي بلا عقـل ، وان يصمت ابي بلا رحمه ،وان تتعلق آمالي بازهاق روح ،خبرني عن معنى ذلك كلـه ٠"(١) وينفذ صابر جريمته بحذافيرهـا ،فيقتل الرجـل وهو نائم في فراشه ،بقضيب حديدى على رأسه ٠

ويسقط صابر ،يصبح قاتلا ،وتستحيل عليه منذ تلك اللحظة ،الحياة الشريفه ،فحين تأتيـه الهام (الحب النقي) لتعرض عليه مدخراتها ،كرأس مال ،وتدعوه لحياة شريفة معها ،يهتـف بصمت " آه لو يقدر ان يرد الحياة الى عم خليل ،ويستيقظ من الكابوس ٠ فلتبتعد الهام عنـه ، فهي ليست الا عذابا ٠ أمـا كريمة فقد جمعت بينهما الجريمة برباط لن ينفصم حتى الموت ٠"(٢)

ويعرف صابر ،من وكيل القتيل ،ان الخادم اتهم بالقتل ،بسبب السرقة ،وان للزوجـة — عشيقته — ،حياة ثانية مع زوجها الأول ٠ ويستنتج انها استعملته للقتل ،كي تحتفـظ بالثروه ،لها ،ولزوجها ٠

---

(١) الطريـق — ص ١٠١

(٢) " — ص ١٥١

ويصيبه جنون ، " اجل كان الجنون يعصف به عصفا ". ويتوجه اليها ،وفي نيته أن يقتلها ، لانها دبرت قسمة جهنميه : " له الجريمة ،ولها وللرجل ،الثروة " (١)

وفي يأسه ،يهجم عليها ،ويخنقها .. ويقبض عليه ،ويسجن .

وفي السجن يخبره محاميه ، أن اباه عرف ،ولكنه يظل مسافرا ،لانه اتخذ الحب عملا ، ولن يجديه نفعا .

لا جدوى من أى شيء . فلقد ضاعت الحرية ،والكرامة ،والسلام ،والهام ،وكريمة ،ولم يبق الا حبل المشنقة .

---

(١) الطريق — ص ١٦٨

٣ - شهداء وضحايـا :

كان لاحتلال القوات البريطانية لمصر، ضحايا كثيرون، سقط بعضهم، وهو يصارع الأحتلال بالطريق المباشر اثناء المظاهرات، وسقط البعض، وهو يصارع للحصول على شيء من حقه، في حياة معقوله، بعد ان سلب الأحتلال - بالتواطؤ مع الأقطاع، والأرستقراطيه الحاكمه - كل حق له. والانموذجان الصارخان لهؤلاء الضحايا، هما فهمي احمد عبدالجواد، وعباس الحلو.

فهمي، هو ابن الثورة الوطنيه، التي اندلعت سنة ١٩١٩، طلبا للحريه والأستقلال، يشترك وهو طالب، في توزيع المنشور، الذى بعثه الوفد الى السلطان، يطالب فيه باستقلال مصر، ويشتعل غضبا بعد ان نفى الأنكليز، سعدا وأصحابه، الى جزيرة مالطه، ويلتقي مع رفاقه الشباب الغاضبين، ويقررون الأضراب.

ولأنّ الشباب يأتون، كما يقول سامي خشبه، من مجتمع "ظل تسعة قرون كاملة تحت أثقال التجهيل، والأفقار، والتجمد الحضارى، والضياع القومي، والقهر السياسي، والقهر الروحي، فانهم لم يعرفوا كيف يستعدون لصراع منظم من اجل الأستقلال".(١)، مع انهم كلهم، كانوا مهيئين نفسيا، للموت في سبيل مصر "سيان ان احيا او ان اموت، الأيمان اقوى من الموت، والموت اشرف من الذل، فسنيئا لنا الأمل الذى كانت الى جانبه الحياة، اهلا بصباح جديد من الحرية، وليقض الله بما هو قاض".(٢)

انّ المحاولات المتواصلة، التي بذلت خلال قرون، لترويض روح الشعب المصرى، وعقله، واخضاعهما لنظم عقليه، وفكريه، تقوم في معظمها على النقل، والخرافه، او على الأستعلاء العنصرى،

---

(١) خشبه سامي - شخصيات من ادب المقاومة - مجلة الآداب - العدد السادس، حزيران سنة ١٩٦٨ - ص ١٢

(٢) بين القصرين - ٤١٤

أو التزييف الحضارى المنظم ، هي التي دفعت بأهلين كثيرين ،لان يمنعوا ابناءهم الطلبة ، من الخروج في المظاهرات ،وان يستعينوا على طرد الانكليز ،بآية الكرسي ،وسورة قل هو الله احد ،التي تطرد الاشباح ايضا .(١)

ومن هؤلاء الطلبة ،فهمي ،الذى يتعرض لضغط شديد من والديه ،من امه السلبية الضعيفة ،وابيه المتسلط الجبار ،الذى يطلب منه ان يقسم على القرآن ،بأنه لن يشترك في الثورة.

وهكذا كان على هذا الشاب ان يقاتل على جبهتين ،جبهة الاستعمار المتمثل بالاحتلال ، وجبهة الرجعية المتمثلة بالعائلة وتقاليدها ،فالعائلة تؤمن بأن " الانكليز لا يغلبون - وهذا بفضل عقدة الاستعلاء العنصرى - لانهم من طينة غير طينة البشر ،اسمى وأرفع .

ان " السيد احمد عبدالجواد ينصح ابنه عن طريق الشيخ متولي صانع الاحجبه ،" ان يبتعد عن موارد التهلكه ،فربك القادر وحده على اهلاك الانكليز ."(٢)

ويرد عليه فهمي " ليس ثمة خطر وراء ما نعمل ،غيرنا يقوم بأعمال أجل ،كالاشتراك في المظاهرات . وقد استشهد منهم كثيرون ،ولست خيرا منهم ،ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ، ولا هتاف فيها الا " للوطن ،حتى اهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ،فما حياتي ،وما حياة أى انسان ".(٣)

قد تكون هناك فئة ،تهتف وتزغرد للموت ،الا " ان عائلة فهمي - بالتأكيد - ،ليست منها . فهي من طبقة التجار ،" الذين سيطرت على حياتهم القيم الاقطاعيه ،التي خلقت بالفعل تناقضات بشعه بين علاقاتهم الاجتماعية الجديده ،وما يحرصون عليه من تقاليد ." (٤)

---

(١) بين القصرين - ص ٤٢٥
(٢) " " - ص ٤٥٤
(٣) " " - ص ٤٨٨
(٤) شكرى ،غالي - المنتمي - ص ٢٩

فليس مستغربا اذن ، ان تصاب الأم بالهلع ، والتفجع ، حين تعرف ان ولدها اشترك في المظاهرات سرا ، لقد اشترك في المظاهرات ، لأجل استقلال الوطن ، ولكن مالها هي ولاستقلال الوطن " لقد ولدتكم جميعا في ظل حكمهم ، وما زلنا احياء بحمد الله " والحق انه لم يكن متوقعا من امرأة ، عاشت حياتها عبده ذليلة لزوجها ، ان تفهم او تتحسس حاجة وطنها للحرية والاستقلال ، وطالما انّ حاجاتها ، وحاجات بيتها الماديه ، مؤمنه ، فلن تحيد عن ركب المضطهدين السلبيين .

وربما كان لموقف الأبوين السلبي من اشتراك فهمي الفعلي في المقاومة ، اثر في مقتله ، ففي اثناء مظاهرة تأييديه سلميه ، سمحت السلطة بقيامها ، ليعرب الشعب عن ابتهاجه بالافراج عن سعد ، وخرج فيها الشاب بموافقة والديه ، اعتراه احساس بأنه دون الكثيرين من اترابه ، جرأة وأقداما ، " ما انا الا محارب اعزل ، ولئن فاتني الرائع من اعمال البطولة ، فحسبي انني لم أتردد مرة واحدة ، عن الالقاء بنفسي في اتون المعركة " . (١)

كان الشاب يُعزى نفسه ، المطلوب منها ، ان تطيع سلبية الوالدين ، لكن نفسه كانت تواقة لعمل بطولي ، لذلك فانه عندما انقلبت المظاهرة السلميه ، الى مظاهرة دامية ، وتفرق الجمع الهائل لدى دوى الرصاص ، ظل " هو واقفا يتحدى الموت ، امام معسكر الأزبكيه .

ولم يفت القتل والارهاب ، من عزيمة المصريين على الثوره ، من اجل الاستقلال ، وكما سقطت منهم الضحايا ، سقطت الضحايا من قوى الاحتلال .

ففي رواية " ميرامار " ، تكون ماريانا ، صاحبة البنسيون ، هي ارملة ضابط انكليزى ، قتل في ثورة سنة ١٩١٩ ، يتأمل عامر وجدى - الصحفي العتيد - ، صورته متسائلا " ترى من قتلك وبأى سلاح قتلك ؟ وكم من جيلنا قتلت قبل ان تقتل ؟ جيلنا العتيد ، الذى فاق الأجيال جميعا في غزارة ضحاياه " . (٢)

---

(١) بين القصرين - ص ٥٦٦
(٢) ميرامار - ص ٢٥

سنة ١٩١٩ ، قاتل المصريون على ارض مصر ، من اجل التحرر ، وظلوا يقاتلون الى ما بعد ثورة ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٢ ، وامتدت رقعة الأرض التي يقاتلون عليها ، الى ابعد من مصر ، ومن اليمن يلتقط نجيب محفوظ ، لحظة مأساويه ، تمثل موت الجندى المصرى هناك ، في اقصوصة " ثلاثة ايام في اليمن " ، من مجموعة " تحت المظلة " .

شاب موظف ، تجند في سلاح المظلات دون تدريب ، والتحق بالقوات المقاتلة في اليمن ، دون ان يودّع امه ، او خطيبته . كان موضع ثقة رئيسه ، وطول عمره وهو من المتوكلين على الله ، المعتمدين على دعاء الوالدين .

ويخوض المعارك بقليل من الخبره ، وكلما استشهد زميل له ، فكر في اهل الشهيد بمصر " يظل الميت حيا في وجدان اهله بمصر ، حتى يبلغهم خبره . وفكرت فيك يا مصر . بكل وجداني الحزين . من فوق قمة الجبل الأسود ، وتحت سيل من النار المنهمر ، فكرت فيك يا مصر ."(١)

ويموت هو الآخر ، في احدى المعارك ..

أن دخول الجندى الى المعركة ، بغير تدريب ، متوكلا على الله ، ومعتمدا على دعاء الوالدين ، ورضا رئيسه المباشر عنه ، ثم المنولوج الداخلي ، الذى جرى على لسان الأديب الضيف ، المرافق للجنود في اليمن ، والذى قارن فيه ، بين احاديث الأدباء المصريين الفرديه ، وكلماتهم ، امام الجمهور ، وبين تجوالهم في السوق ، وموقفهم وراء المنصه ، ووصوله في تأمله ، " الى ان هناك شيئا ما ينقصنا ، لعله محو التناقض ، بين ما يقال وما يجب ان يقال ."(٢) كل هذا ، يجعلنا نعتقد ، بأن " نجيب محفوظ ، يثور على الوضع الذى أدى الى هزيمة الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ . ولو لم تكتب هذه الأقاصيص ، في الفترة بين اكتوبر وديسمبر سنة ١٩٦٧ ، لحسبنا انه يرهص بالهزيمة .

---

(١) تحت المظلة — ص ١١١

(٢) " " — ص ١١٩

ويؤكد اعتقادنا ،أجابته عن سؤال ورد في مجلة " مواقف " ،حول ثورية الأدب بعد الخامس من حزيران ،اذ يقول :

" ليست ثورة الأديب منفصلة عن المصنع ولا عن الحقل ،ولا عن المكتب السياسي . انها متصلة مع الثورات كلها (ثورة العامل والفلاح والسياسي) . وهي تبدأ في قلبه أولا ،وفي تفاعله مع الناس ثانيا ،تبدأ في احساسه التنبوئي الطبيعي ،الذي لا اعتقد ان فنانا يستحق هذا الأسم ، خال منه ،لأن الفنان الأصيل كالحيوان : كالعصافير والفيله والنسور التي عندما تحس بخطر محدق تصدر بالغريزه اصواتا خاصه معلنة للملأ ،ان خطرا ما آت . والفنان اذا لم يكن عنده هذا القدر من الاحساس العام الذي يجعله ويجعل ادبه في مستوى النبوءه ،ومنه منها دعوه الى يمين او يسار او امام ،تكون اجهزته كلها مختلة . من هنا تنطلق ثورة الأديب : انها النبوءه والنداء . ان على الأدب ان يعكس اثر الخامس من حزيران بشكل ثوري ايجابي كشفي ، يفحص بعمق عيوبنا التي أدت الى هذه النكسه ،وفي الوقت نفسه ،يثير الهمم ويدفع الانسان العربي الى الخروج من هذه الدوائر . الهزيمة في الحرب هي نتيجة لعوامل كثيرة جدا بعضها نفسي ،بعضها اجتماعي ،بعضها سياسي . تفاعل العوامل كلها مجتمعه ،فيما بينها ، انتهى في تكشيف العمل الأخير واعطائه مكانته في التاريخ . الهزيمة لم تكن صدفه .. انا لا اتذكر ان هزيمة حصلت في التاريخ كان يمكن ان يحل محلها نصر ." (1)

لكل فترة ،من فترات النضال السياسي ،ضحايا وشهداء ،وصي عبد الجواد ،كان ضحية ثورة سنة ١٩١٩ ،والجندي المصري في اليمن ،ضحية الفترة التي ارهصت بهزيمة حزيران ١٩٦٧ ،

---

(1) نجيب محفوظ - الأدب ،الحريه ،الثوره ، - مجلة مواقف - العدد الأول ،تشرين ثاني، سنة ١٩٦٨ - ص ٧٤ و ٧٥

وعباس الحلو ، هو ضحية الحرب العالمية الثانية ، فقد سقط صريعا ، بأيدى الجنود الانكليز .

وتجسد رواية " زقاق المدق " ، مأساة الشعب المصرى ، أبان الحرب العالمية الثانية ، حيث نهب الاعراض ، وافساد الذمم ، وطبقة اللصوص ، الذين اثروا على حساب المعسكرات البريطانية ، فكونوا رأسماليه ، انتهازيه ، جديدة .

يعود عباس ، الى الزقاق ، بعد ان عمل شهورا مع الانكليز ، كي يوفر المال ، ويتزوج من حميده . وكان عباس ، قد اقفل دكان الحلاقه ، باغراء من حسين كرشه ، الذى حثه على العمل بمعسكرات الجيش الانكليزى : " عليك بالجيش الانكليزى ، كنز لا يفنى .. وكنز الحسن البصرى . ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم .. وسوف تطول الحرب عشرين عاما ". (١)

يصف غالي شكرى ، عباس الحلو ، بأنه مثال الانسان المصرى الوديع المسالم ، الذى يلتمس الحب ، ممزقا بين الاحاسيس الرومانسيه ، والشهوات الواقعيه ، وكرامته تأبى عليه أن يضيع بين هذه وتلك ". (٢) ، يعود من المعسكر ، فيكتشف ان حبيبته اختفت ، وحين يعرف ان آخر مرة شوهدت فيها ، كانت برفقة افندى ، يعتريه غضب نارى ، ومقت نمم ، غير ان شعوره بالخيبه — الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود في التراب — كان اقوى من الغيرة نفسها ، وتعتريه فكرة الانتقام ، بطعن القلب الذى غدره . الا انه بعد أن تهدأ ثورته ، يرسب في قرارة نفسه ، حزن عميق ، ويأس مدلهم .

وينصحه اهل الزقاق ، بأن ينسى ما أصابه ، ويعود الى عمله ، ويجمع المال ، ويفتح دكانا جديدة ، لكنه يأبى ان يتنازل عما اعتبره حقه ، حميده من حقه ، فهي بنت حته ، وهي التي

---

(١) زقاق المدق — ص ٢٤

(٢) شكرى ، غالي — المنتمي — ص ١٣٩

وعدته بالزواج ، ومن اجلها ذهب الى معسكرات الانكليز ، وجمع المال بالذل ، والعرق ، والجهد ، واذا لم يستطع الحصول عليها حيه ، فليقتلها ، حتى لا يأخذ احد حقه .

وبتشجيع من ابن حيّه ، حسين كرشه ، يذهبان الى الحانه التي تعمل فيها حميده ، عاهره . ويراها عباس في جلسة شاذة بين نفر من الجنود . كانت تجلس على كرسي ومن ورائها جندي واقفا يسقيها خمرا من كأس في يده ، وقد مدت ساقيها على حجر آخر ، يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون .

وتصرخ حميدة به ، ان يغرب عن وجهها ، بعد ان ناداها ، فتفعل به غضبتها وصراخها ، فعل النفط بالنار ، فيجن جنونه ، ويختفي من نفسه ما طبع عليه من تهيّب ، وتردد ، ويجد ما عاناه في الايام الثلاثة الماضية من قهر ، وعذاب ، وتنوط ، تقيأ في مرجل نفسه .

يتناول عباس ، بعض زجاجات البيرة الفارغه ، ويقذفها صوبها ، فتصاب في وجهها ، ويتفجر الدم غزيرا من فمها ، وانفها ، وذقنها . وعندها ينقض عليه الجنود الغاضبون ، كالوحوش الكاسره ، وتتطاير الكلمات والركلات والزجاجات . وحسين كرشه ، واقف مقهور ، مغلوب على امره ، لا يدرى كيف يشق سبيله الى صاحبه ، وسط اولئك الجنود الكواسر القاتلين . وتتقاذف الايدى والارجل ، عباس الحلو ، وهو كالكره ، لا يملك للقضاء دفعا .

يموت عباس ، يقتله صراعه ضد قوى الاحتلال ، والانتهازيه الرجعيه ، يقتله ايمانه بأن له حقوقا يجب الدفاع عنها . وحين يعود حسين كرشه ، ويشيع في الحي ، ان عباس الحلو ، قد قتله الانكليز ، يبكي عم كامل ، شريك عباس في دكانه ، بكاء مرا ، وينتحب كالاطفال .

الا أن سليم علوان ، المصاب بالذبحة الصدريه ، يكون اشد أهل الزقاق تأثرا لا على الفقيد ، ولكن فزعا من الموت ، الذى اقتحم عليه الزقاق ، فأثار مخاوفه وضاعف آلامه ، فعاودته افكاره

السـوداء ،وتصوراته المريضه ،وأخيلة الاحتضار ،والموت ،والقبر ،التي انهكت اعصابه .

أهل الزقاق ،مشغولون بتأمين حياة معقولة لهم . بعضهم يذهب الى معسكرات الانكليـز ، وبعضهم ينبش القبـور ،ويسرق اسنان الاموات . وحميدة تختار الطريق القصير ، طريـق العهـر والثرى الوحيـد ،سليم علوان ،يعيش في خوف دائـم من الموت .

صورة انسانية ،واقعيه ،رسمها الفنان ببراعة ،وأنهى الرواية بحقيقـة بسيطـة ،وهـي أن المجتمع يظل يسير دون الاكتراث بضحاياه " انداحـت هذه الفقاعه ايضا كسوابقهـا واستوصى المدق بفضيلته الخالدة في النسـيان وعدم الاكتـراث ."(1)

---

(1) زقاق المـدق - ص ٣١٣

٤ — موت العاشق الشاب :

الأسباب :

أ — استهتار الشباب بالمرض لأجل اللهو .

ب — الخوف من فقدان الوظيفة .

ج — الخوف من هزء المجتمع وشماتته .

د — الخوف من فقدان الحبيبة .

رشدى عاكف ، شاب من اسرة متوسطة ، يعمل موظفا صغيرا في البنك . يصاب حين اشتداد البرد ، بعد انصرام نوفمبر ، بالانفلونزا ، فلا يعبأ بوعكات البرد ، ويكتفي بابتلاع اقراص "الاسبرين" ، اذا اشتد عليه وجع الرأس .

ويشتد عليه المرض ، فيمنحه طبيب المصرف ، اسبوعا . وتتدهور صحته بسرعة مخيفة ، فينصحه أخوه ، الا يفرط في صحته ، فلم يعد جسمه يتام ، لانه يكلفه ما ليس في وسعه . لكن رشدى ، لا يعبأ بنصائح اخيه ، ويعتبر الاسبوع الذى قضاه في الراحة دون لهو ، ولعب ، وملذات ، اسبوعا ضائعا هدرا ، فيعود لحياته العادية : سهر ، وشرب ، ولعب ، ونساء . وتكون النتيجة ، أصابة رشدى بسعال حاد ، يرافقه تدهور عام في صحته وقواه .

وفي المصرف اثناء العمل ، يبصق رشدى في منديله دما ، ويصيبه الذعر والارتياع ، ثم يدس المنديل في جيبه ، خشية افتضاح أمره ، ويذهب الى طبيب مختص ، بعد ان يستولي عليه القلق والانزعاج "وكان سمع مره صاحبا له يقول : ان السل داء لا برء منه ".(1)

يتأكد للطبيب ، بعد التصوير بالاشعة ، أن رشدى مصاب في رئته اليسرى ، وان عليه بالغذاء الجيد جدا ، والراحة التامة ، والهواء الجاف النقي ، وكل اولئك متوفر في المصحة ، وينصحه

(1) خان الخليلي — ص ٢٠٠

بالذهاب الى حلوان دون توان ·

ويسأل رشدى ، وقد أصابه هلع ويأس ، كم من الوقت يستغرق العلاج ، وحين يعرف انه ستة اشهر ، ينقبض صدره ، ويوقن ان هذه المدة تقضي عليه حتما بفقد وظيفته " وغدا اذا ذاعت الحقيقة وعلم بها الجيران فقد فتاته كذلك ·"(١)

ويقرر الشاب ، ان يخفي مرضه عن الجميع ، فلا يعلم بسره انسان ، وبذلك يطمئن على وظيفته وفتاته ، لذلك يرفض فكرة المصحه ، ويقرران يستشفى في البيت ، ولكن بغير الطريقة التي أشار بها الدكتور ، فالدكتور اشار عليه " بألا يغادر فراشه ، مع العلاج الطبي ، مدة ستة شهور ، وبألا يتزوج الا بعد عام ونصف من تمام البرء ·

وأما هو ، فيظل يعمل في وظيفته ، لقد أقنع أخاه ، انه بوسعه ان يظل يعمل ، على ان يرتاح في أوقات الفراغ ، ويتغذى جيدا ، ويأخذ بعض الحقن " وسيتم الشفاء بأذن الله بغير ضياع مستقبلي وبغير فضيحة ·"(٢)

ويحاول احمد — الاخ الأكبر — ان يقنع رشدى ، بأن ليس في الأمر فضيحه ، وان المرض بلاء من الله ، وكل انسان عرضة للأمراض ، لكن رشدى ، يصر على التستر مع اخذ الأحتياطات ، كان يأكل في اوان خاصة ، ويغسل الحمام والمغسلة بمطهر · كل ذلك حتى لا تدرى امه ، وبالتالي اسرة فتاته ، فيخسر حبيبته ومستقبله ·

وحتى حياة الليل والسهر والعربدة ، لم ينقطع عنها ، خوف ان يشعر اصحابه وزملاؤه بما به ، فيشيع امره ، ويبتعد عنه هؤلاء ، ويخسر وظيفته ، وفتاته · " هذا الى جانب ميله الطبيعي للذات ، وميله الأصيل ، للأمل ، والتفاؤل ، والجسارة ، والأبتسام ·"(٣)

---

(١) خان الخليلي — ص ٢٠٣
(٢) " " — ص ٢٠٧
(٣) " " — ص ٢١٩

ويظل على عهده ،من موافاة فتاته ،كل صباح ،في طريقها الى المدرسه ،حتى لا يشعرها بما به . الى ان تسوء حالته كثيرا ،ويرضخ لاشارة الطبيب بالذهاب الى المصحة ،لكنه يظل مشترطا الا تعرف حبيبته . وينقل في اول مارس ،وبانتقاله ،تذوق العائلة طعم الحزن الممزوج بالرجاء والخوف ،وتبيت ليلتها الاولى في غم . الاب ،تلوح في عينيه نظرات شاردة ، والام ،تبكي حتى تدمي عيناها ،والاخ احمد ،يحاول ان يخفف عنهما بحديث الرجاء والامل ، لكنه في الحقيقة بحاجة الى من يخفف عنه .(١)

ويتسلم احمد ،رسالة من رشدى ،ينعي له نفسه فيها ،ويطلب منه قضاء ايامه الاخيرة بينهم .

ويرجع رشدى الى بيته ،ويلزم فراشه ،بينما تنقطع حبيبته ،ووالداها ،عن زيارته . وتنقل حجرة نوال ،بعيدا عن نافذة رشدى ،ويحال بينها وبين رؤيته ،بضغط من اهلها ،فيحزن ذلك رشدى كثيرا ،لظنه انهم قد عرفوا حقيقة دائه "ابشع شيء في هذه الدنيا ،جفاء صديق بغير ذنب ،أو ان يكون ذنبه ،ان الصحة جفته .. ان الخيانة قبيحة " .

وأما احمد ، فيقول لنفسه محزونا " رباه الكيف جفته وقد راح ضحية لها ."

ونوال ،تعتبر نفسها غادره " ليس المرض بالشر الوحيد في هذه الدنيا ،فالغدر شر من المرض ،ماذا يظن بي ؟ بل .. كيف ادفع عن نفسي امامه وامام الناس ؟ ".(٢)

الناس ،المجتمع ،الحاجة ،الغريزة ،التسلق ،تلك هي العوامل التي وصلت برشدى ، الى القبر . يموت رشدى لانه يرفض الذهاب الى المصحة ،خشية ان يفقد وظيفته ،والا يكفي ما تبقى معه من نقود ،للاقامة هناك في الدرجة الثانية "ليس في وقتي الآن ان اعود الى الدرجة الثانية ،ومحال ان ارضى بالانتقال الى عنابر الدرجة الثالثة ".(٣)

---

(١) خان الخليلي - ص ٢٢٤
(٢) " " - ص ٢٤٤
(٣) " " - ص ٢٥٠

لكن نجيب محفوظ ،لا ينسى وهو يسوق الينا هذه العوامل مجتمعة ،العامل القدرى ، الذى دعا رشدى الى ان يطلب القرآن ،وهوعلى فراش الموت ،ويفر وهو في حضرة القرآن ،من آلامه ،ومخاوفه ،ويلوذ بالاستسلام ،والتسليم ،والصبر ،والتوكل على الله ،ويجد ارتياحا في الاذعان المطمئن الى ارادة الله ،وقضائه "يا رب ! اذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهي بهذا الداء أجلي ،فاسألك الرحمة بالتعجيل به ".(١)

ويموت رشدى في الليل ،ويستيقظ احمد ،الساعة الخامسة صباحا ،على حركة في البيت ، وقبل ان يخطو خطوتين في الدهليز المفضي الى حجرة رشدى ،ينفتح باب الحجرة بقوة ،وتبدو امه على عتبته ،وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها ،كمن يستغيث ،ثم هوت براحتيها على خديها ، تلطمهما بعنف وجنون .

الموت ،الذى تضافرت العوامل الاجتماعية النفسيه ،وقضاء الله وقدره ،على حدوثه ، يسورث بحدوثه آثارا اجتماعية ونفسيه .. ويتداخل التأثير ،والتأثر ،بين الموت والمجتمع ، تداخلا متلاحما ،وتظل الدائرة تدور ،والخطوط تتلاقى اطرافها .

---

(١) خان الخليلي — ص ٢٥٠

٥ — الموت بحادث :

سئل نجيب محفوظ ،ما هي فكرتك الكاملة عن الموت ؟ فقال : "الموت هو النهاية .. هو الفناء ."[1] وفي رواية "أولاد حارتنا"، يؤكد على لسان ابطاله،فكرته عن الموت،حين يتحاور عرفه مع الناظر :

— " لماذا نموت يا عرفه ؟
— كلنا اموات وابناء اموات .
— لست في حاجة الى تذكيرى بما قلت ..
— ليطل عمرك يا سيدى ..
— طال اوقصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان .. الموت .. الموت،دائما الموت ،يجيء في اية لحظة ولاتنفه الأسباب أو بلا سبب على الاطلاق ."[2]

اذن ،فالموت قدرحتمي ،نهاية لا بد منها ،تحصل بسبب وبلا سبب ،بذنب وبدون ذنب، وفي هذا الفصل نحاول ان نبحث عن الأثر الاجتماعي الذى يحدثه الموت الناتج عن حادثة عرضيه ،صدفه ،أو قدر .

ويبرز هذا الاثر بوضوح ،في رواية " ثرثرة فوق النيل " ،اذ ينهي موت رجل ،بحادث سيارة عرضي ،حالة اجتماعية ونفسيه ،لها صفة الاستمرار . الحاله ،هي اجتماع مجموعة من افراد المجتمع، بينهم الموظف ،والصحافي ،والممثل ،والكاتب ،والمحامي ،والمترجمه بوزارة الخارجيه ،والمرأة المزواج ،والطالبه ،في عوامه يقوم برعايتها نوبي طاعن في السن ،وفي الايمان ،وفي القواده .

---

(١) شوشه ،فاروق — مع الأدباء ، نجيب محفوظ — مجلة الآداب — العدد السادس ،حزيران سنة ١٩٦٠ — ص ١٩

(٢) اولاد حارتنا — ص ٥٢٣

يجتمعون كل ليلة ، على غرزة حشيش ، ولا همّ لهم سوى العبث والسطلان . أى ان " هذه المجموعة ، حاولت فصل نفسها عن المجتمع ، بهذه الاجتماعات الليلية ، المتكررة بنفس الطريقة ، ونفس الترتيب . فبات من الطبيعي ، ان تتشابه شخصياتها ، رغم الفروق الاساسية فيما بينها . فالاختلافات ، تختفي في جو المخدرات ، الذى فرض عليهم طريقة غريبة ، في الكلام ، وفي السلوك .

وفي رأى الدكتور عبد القادر القط ، انّ الحادثة التي وقعت عرضا ، وهي قتل رجل ، اثناء قيادة السيارة ، وهم فيها يعبثون ، دون ان يبلغوا عن الحادث ، " انما هي جريمة ، وهذه الجريمة تدل على ان هذه الجماعة ، وان بدت منفصلة تماما عن المجتمع لانها لا تمارس حياته ، فانها ما زالت مرتبطة ارتباطا متينا بهذا المجتمع ، حين عدت على قيمة اخلاقية من قيم المجتمع الذى تعيش فيه ، فثقلت هذه الجريمة على ضمائرها كما تثقل على ضمير أى مجرم عادى ، واضطرتها الى التفرق فيما بعد . "(1)

ولو تتبعنا الاثر الذى خلفه هذا الحادث على موقف انيس ، الشخصية الرئيسية في الرواية ، وعلى مثله وحياته ، لوجدناه ذا شقين ، الشق الاول : اجتماعي مادى ، انه فقد وظيفته ، لاصابته بالارق من شدة الصدمة ، ولاضطراره للنوم في المكتب تعويضا ، مما دفع بمديره ، الى احالته للنيابة الادارية ، بعد جدل بينهما فقد فيه انيس ، سيطرته على نفسه . أى انّ انيسا اصبح متشردا .

والشق الثاني : هو يقظة انيس الضميريه ، وهو الغارق في الحشيش والجنس ، وانقلابه من موقف العابث ، الى موقف الجاد . فبعدما طلب فنجان قهوته المعهود بالحشيشه من عم عبده ، وبعدما اعتبر الحادث لا اهمية له ، " علمتم من الحبه قبه " اذ به ينقلب ، بعد ان صفعه

---

(1) لطيفه الزيات ، عبد القادر القط ، شكرى عياد — ندوة حول ثرثرة فوق النيل — مجلة الآداب ، العدد العاشر ، تشرين أول ، سنة ١٩٦٦ — ص ١٣

رجب ، — وهو الذى كان يقود السيارة — ، وصفعه لانه عيّره بحبه هو وسماره — الصحافيه الجاده — اذ به ينقلب الى انسان عنيف ، وجاد ، يدافع عن نفسه ، وعن العدالة . "كل شيء يهون الا جريمة القتل ، ويجب ان تتحقق العدالة ".(١)

وهكذا يكون حادث القتل ، الذى تم في آخر الرواية ، هو الذى غير هذا الانسان ، من كائن سلبي الى كائن ايجابي . وعلى لسانه ، ينهي نجيب محفوظ ، رواية "ثرثرة فوق النيل" ، بهذه العبارات :

" أصل المتاعب مهارة قرد : تعلم كيف يسير على قدميه فحرر يديه ، وهبط من جنة القردوس فوق الاشجار الى ارض الغابه . وقالوا له عد الى الاشجار والا انقضت عليك الوحوش ، فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد ، وتقدم وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له ".(٢)

ويفسر احمد عباس صالح ، هذه العبارات بقوله : " ان الفضول الى المعرفة او النزوع الغريزى اليها ، هو الذى دفع القرد الى تلك المغامرة الفذة التي انتهت بالحضارة الحديثة ووصلت الى عصر الفضاء ، وان مشكلة العيش هي التي حركت هذا القرد ، وهي التي علمته كل شيء وهي التي تعلمه حتى الآن كل شيء ".(٣)

وموت الرجل المجهول ، وما خلفه من صراعات بينهم هبوطا وصعودا ، هو الذى عرّى شخصيات المجموعة : بالنسبة لعلي السيد ، الناقد الفني المعروف ، "ليس الحادث المؤسف بقضية وطن ولا مبدأ ، المسألة بكل بساطة مجهول قتل خطأ ، هناك مسئولية لا انكر ، حماقة مألوفة ويا للأسف ، ولكن هل نهون عليك جميعا ، هل تريدين حقا التضحية بسعادتنا وكرامتنا ، في سبيل لا شيء ".(٤)

---

(١) ثرثرة فوق النيل — ص ١٨٨
(٢) " " " — ص ٢٠١
(٣) صالح ، احمد عباس — قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) — مجلة الكاتب — العدد ٦١ ، ابريل ، سنة ١٩٦٦ — ص ٩٨
(٤) ثرثرة فوق النيل — ص ١٨٢

بالنسبة لسماره ،الصحافيه الجاده ،التي كانت تصر دائما على الابلاغ عن الجوهر ، "مات في جانب لا يعوض ،نحن قتله ولن اصلح لشيء ." (١)

وأما مصطفى راشد،المحامي، فقد عرّى نفسه بهذه العباره "لن يبعث الرجل حيا اذا بلّغنا النيابة ،ولن يفيد من تضحياتنا ."(٢)

وأحمد نصر،الموظف الخطير،" لقد ركبنا الشيطان فلم يعد لنا من وجود ."(٣)

ووقف رجب،في لحظة غضب يعلن " تتوهمون انني وحدي المسئول ،ولكنكم هربتم معي . كلا يا أوغاد ،اني ذاهب ،سأذهب الى النقطة بنفسي،اني اتحدى الخراب والموت والشيا لين."(٤)

ولم يقل لنا نجيب محفوظ،ما اذا كان رجب،قد ذهب أو لم يذهب . لكن الواضح ان كل شيء في حياة المجموعة قد تغيّر،وافصح كل واحد عن موقفه الحقيقي في الحياة .

وفي اقصوصة قصيرة ،من مجموعة "خمارة القط الأسود " ،بعنوان "المتهم " ،نواجه موقفا مناقضا من حيث الفعل ،ولكنه مطابق من حيث الاثر .

فالاقصوصة تقول ،ان انسانا ما،قد دهس بحادث سيارة ،واتهم رجل بريء اتى للمساعدة ، والقبض على الفاعل ،اتهم بأنه هو القاتل . وتتابع احداث الاقصوصة ،انبثاقا من هذه التهمة ، فلكي يدافع الرجل عن نفسه ،امام غضبة الفلاحين القادمين للانتقام منه ،يضطر لاشهار مسدس ، ويصيح فيه الفلاحون :

— أتريد ان تقتلنا كما قتلته ؟ "

---

(١) ثرثرة فوق النيل — ص ١٧٧
(٢) = = = — ص ١٨٢
(٣) = = = — ص ١٨٧
(٤) = = = — ص ١٩٥

وعبثا يحاول الرجل اقناعهم بأنه ليس الجاني . فهم في ادعائهم قد رأوه بأعينهم " رأينا كل شيء " وحين يأتي البوليس للتحقيق يشهد الفلاحون ضده " رأيناه بأعيننا ومنعناه من الهرب " . (١)

ويوقفه البوليس ، بانتظار نتيجة التحقيق ، وبانتظار العملية التي تجرى للضحية . الا أن الشاب يموت ، ويتجادل الموقوف مع الضابط ، فيفقد اعصابه ، ويتهمه بأنه يؤخر حضور النيابة ، وبأنه يمنع القانون . فيهدده الضابط بوضعه في السجن ، ويتهمه بأنه يدعي الجنون ، ويبلغه في النهاية ، بشماتة وحقد ، أن المصاب مات متأثرا بجراحه .

الحادث وقع ، ومات الرجل ، ومع انه لا دخل له اطلاقا في موته ، ومع انه بوقوفه ، أراد بشهامة : ان يمد يد المساعدة للجريح ، وان يفسح للقانون مجراه العادل ، وجد نفسه متهما سجينا . لولا الكذب والزور لكنت الآن في بيتي آمنا .

---

(١) خمارة القط الأسود — ص ٦٢ و ٦٦

٦ - موت الزعيم :

في مثل المرحلة التاريخية ، التي اختارها نجيب محفوظ ، بيئة للثلاثيه ، حينما عاش الشعب المصري ، تجربة الشروع في النضال من اجل استعادة حريته ، بطرد الاحتلال ، والتصميم على الاستقلال ، يبدو موت الزعيم ، الذي بثّ روح المقاومة في الشعب ، والذي نفي وعذب لأجل مبادئه ، يبدو كارثة احتماعية . الاّ اننا لم نلمس هذه الكارثة ، بردود فعلها العمليه . وقد يعود ذلك ، الى سبب يورده سامي خشبه ، في مجلة الآداب ، حين يصنف "عائلة احمد عبدالجواد ، عائلة سلبيه ، يخيم عليها جو الفتور ، والسذاجة ، وعدم المبالاة ، فالأب جبار متعال ، بالسغ القسوة ، لا تشغل عقله غير امور تجارته ، أو بيته ، او فسقه . والأم مستضعفه ، سلبيه ، مقهورة ام زوجها ، تعمل لحسابه امام ابنائه ، ولحسابهم امامه . تكاد الخرافة ان تكون هي لباب تصورها عن عالم الروح والعقل . ثم اشقاء تتوزعهم مشاغل الزواج اوالمرح - المشروع وغير المشروع - والثرثرة التي بلا نهاية ، والحزن على الأموات .

والعنصر الثوري الوحيد في العائلة فهمي ، استشهد قبل موت الزعيم ، أمّا كمال ، بطل الثلاثيه ، فقد انشغل بقضايا الفكر المجردة بعيدا عن خضم الواقع ، او متباعدا عن الأصول الواقعيه ، لقضاياه الفكريه ."(١)

والسبب الثاني في رأينا ، هو ان سعد زغلول ، مات ، وعائلة عائشة تحتضر ، وقد لمسنا هذا السبب ، في ردة فعل كمال ، الاّ انه في أي حال ، لم يكن يتوقع من كمال ، ردة فعل مختلفة . انّ نجيب محفوظ ، يلتمس له العذر في هذا التبرير " لو في غير هذا الظرف الحزين ما درى كمال ، كيف يتحمل النبأ ، ولكن المصائب اذا تلاقت تحدى بعضها بعضا ، هكذا ماتت جدته في اعقاب

---

(١) خشبه ، سامي - شخصيات من أدب المقاومة - مجلة الآداب - عدد ٦ ، سنة ١٩٦٨ - ص ١٣

مصرع فهمي فلم تجد لها باكيا . اذن مات سعد : النفي والثورة والحرية والدستور مات صاحبها ، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته ."(١)

وأما موت الملك فؤاد ، وقد حصل اثناء احداث رواية "السكريه" ، - وكان الاحفاد قد شبوا وانضموا الى الحركات الفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية - فقد احدث املا بمستقبل افضل لمصر . وفي حوار الأخوين ، عبدالمنعم ، الاخ المسلم ، واحمد ، الشيوعي ، نلمس هذا الأمل الواحد برغم تباين العقيدتين :

"احمد - حدثني عن شعورك ..

عبدالمنعم - لا ادرى ، الموت رهيب ، فما بالك بموت ملك . وكان طريق الجنازة ، مكتظا بالناس بصورة لم اشهدها من قبل ، انا لم اشهد جنازة سعد زغلول ، حتى استطيع المقارنه بين الجنازتين ، ولكن يبدو لي ان اكثر الناس كان متأثرا على نحو ما ، وبعض النساء بكين ، نحن المصريين قوم عاطفيون .

احمد - لكنني اسألك عن شعورك انت ؟

عبدالمنعم - لم اكن احبه ، وهذا اعتقناه جميعا ، فأنا لم احزن ، ولكنني لم اسر كذلك . تابعت النعش بعين من لا قلب له ، غيران فكرة الجبار في النعش أثرت فيّ ، لله الملك جميعا ، هو الحي الباقي فليت الناس يعلمون ، غيرانه لو مات الملك قبل ان تتغير الحالة السياسية التي كانت قائمة لزغرد كثيرون .. وانت ما شعورك .؟؟

احمد - انا لا احب الطغاة ، أيا كانت الحالة السياسية . ثم ان حكاية منظر الموت ، رومانطيقية مريضه ، تمنيت ان يمتد بي العمر حتى ارى العالم وقد خلص من كافة الطغاة .

عبدالمنعم - فاروق غلام ، ليس له دهاء ابيه ولا نابه الأزرق ، فاذا سارت الأمور سيرا حسنا ، فنجحت المفاوضات ، وعاد الوفد الى الحكم ، فسوف تستقر الأمور ، وينقضي عهد المؤامرات . المستقبل حسن فيما يبدو ..."(٢)

---

(١) قصر الشوق - ص ٤٦٤

(٢) السكريه - ص ٩٥ ، ٩٦

٧ — الأنتحـــــار :

لما كنا نفتقر الى دراسة احصائية عن اسباب الأنتحار ،ودوافعه في مجتمعنا العربي ، وخاصة المصرى [١]، فقد اعتمدنا مرجعين غربيين ،يعالجان هذا الموضوع في المجتمعات الغربيـة .

المرجع الأول ،هو كتاب بعنوان "الأنتحار" ، "Suicide" لمؤلفه اميل دركهايم Emile Durkheim . وفيه يورد العالم ثلاث حالات ،تدفع بالانسان الى الأنتحار .

١ — عـدم الأنتمـاء — 1- Egoistic Suicide [2]

كأن لا ينتمي المنتحر الى عائلة ،أو دين ،او حزب ،وعادة ما يكون غير متزوج .

٢ — الأنتحار الغيرى (ضد الاناني) — 2- Altruistic Suicide [3]

ان شدة الأرتباط بالعائلة وغيرها من المؤسســات تدفع الى الأنتحار وتدمير النفس حتى لا يخيب امل العائلة او المؤسسـة .

٣ — التغـيّر المفاجيء — 3- Anomic Suicide [4]

كالتغيّر الأجتماعي والقيمي والأقتصادى السريع . والافلاس المفاجيء سـبب مباشـــر .

---

(١) سألنا الدكتور حليم بركات ،استاذ علم الأجتماع ،عن اسباب الأنتحار ودوافعه في مجتمعنا ، فأفادنا بأنه ليست هناك دراسة علمية خاصة ،وأشار علينا بمراجعة الكتابين اللذين اعتمدناهما في دراستنا .

(2) Durkheim , Emile   Suicide - P. 177
(3) = = = - P. 222 - 223
(4) = = = - P. 258

والمرجع الثاني ، هو كتاب بعنوان " الأنتحار ـ والبلاد السكندنافيه " Suicide and Scandinavia لمؤلفه هيربرت هندين ، Herbert Hendin . وفيه يقارن الكاتب ، ظاهرة الأنتحار في البلدان السكندنافيه الثلاث ، السويد ، والدنمارك ، والنرويج . ويخلص الى اعطاء ملامح مميزة للأنتحار في كل من هذه البلدان .

١ ـ في السويد : انتحار سلوكي ، ويسميه الكاتب[1] "Performance " type of Suicide
وينبثق من توقعات سلوكية محددة ، مع كره للنفس نتيجة الأخفاق .

٢ ـ في الدنمارك : انتحار لفقدان الاعتماد[2] "Dependency loss" type of Suicide
وينبثق من السلبية ، والحساسيه المفرطة للهجر ، وايقاظ مشاعر الذنب عند الآخرين .

٣ ـ في النرويج : انتحار اخلاقي معنوي[3] " Moral " form of Suicide
وينبثق من تصرف لا اخلاقي عدائي ، ومن شعور قوى بالذنب يثيره هذا التصرف ازاء اشخاص طيبين .

وقد حاولنا ان نجد ترابطا بين حالات الأنتحار ، التي تكتمل بها سلسلة ضحايا المجتمع في اعمال نجيب محفوظ ، وبين الحالات الواردة في المرجعين اعلاه . فتبين لنا أن هموم الأنسان ومشاكله ، في مجتمع معين ، تكاد تلامس هموم ومشاكل الانسان في كل مجتمع ، وان اختلفت المفاهيم والأسباب المؤدية الى المواقف . ولنأخذ انتحار نفيسه ، في رواية " بداية ونهاية " ، مثلا : ان نفيسه ، قد اتخذت موقف الأنتحار ، وتدمير النفس ، انبثاقا من شدة ارتباطها بالعائلة ، وحرصها على الا يخيب امل عائلتها ، وهو ما سماه دوركهايم ، بالأنتحار الغيرى .

---

(1) Hendin, Herbert - Suicide and Scandinavia - P. 146
(2) = = = = = - P. 146
(3) = = = = = - P. 147

وان كانت نفيسه ،قد اتخذت هذا الموقف ،بسبب امتهانها العهر ،فقد تتخذ انسانة ما ، او انسان ما ،في مجتمع آخر ،هذا الموقف نفسه ،ولكن لسبب آخر ،يختلف باختلاف مفاهيم ذلك المجتمع ،وانتماءاته الاجتماعية ،والاخلاقية ،والدينية .

ويمكننا ان نضع الأسباب التاليه ،لانحراف ضحايا الانتحار في قصص نجيب محفوظ :

١ ـ الخبز والجنس ـ نفيسه ، في " بداية ونهاية " .

٢ ـ التطلع الطبقي ـ حسنين ،في " بداية ونهاية " .

٣ ـ الانتهازية والتسلق ـ سرحان البحيرى ، في " ميرامار " .

علام يسرى ،في " بيت سيء السمعة " .

٤ ـ الافلاس ـ شداد ،في " السكريه " .

صحيح ان نجيب محفوظ ،يكتب عن مجتمع معين ،وعلى وجه الخصوص ،عن الأسرة المصريه المسلمه ،المنتميه الى طبقة البرجوازيه الصغيرة ،والتي تحرم تعاليمها الدينيه قتل النفس . الا أن شخصياته ،هي شخصيات مكافحه ،تصارع الفقر والذل والحرمان ، تصارع الظلم والاضطهاد ، تصارع القدر والانسان ،وينتهي صراعها غالبا الذى هو صراع فردى ،نهاية مأساويه . حتى عند التحول الاشتراكي ،والمفترزان تقوده ثورة منظمة ،ظل هناك من يصارع للتسلق ،على مستوى فردى ،فسقط ،كسرحان البحيرى ،في رواية " ميرامار " .

ونحن نرى ،انه ليس المجتمع ،بشريحته البرجوازيه الصغيرة ،هو الذى يوقع الضحايا ،لكنه المجتمع ،بكل وجوهه وشرائحه : الاقطاعي ،والديكتاتوري ،والبرجوازى ،والاشتراكي . فهناك دائما وجهان للحياة : الخير والشر ،الظلم والعدل ،النجاح والاخفاق ،المعرفة والجهل ،الجوع والشبع ،الكبت والارتواء ،الى آخر التناقضات التي تخلق الصراع . ولئن غلبت على اعمال نجيب محفوظ ،النهايات المأساويه الحزينه ،فلأنه هو ـ باعترافه ـ " من جيل غلب عليه الحزن ،لكن الحزن غير السوداويه والتشاؤم . وشخصياتي محبة للحياة ،ولحياة افضل ،ولكن تصرعها ظروف

خارجة عن ارادتها ، ولانني انظر الى الموت بعين الانسان الاجتماعي لا الفردي ، فاني ارى ان الموت لا يفعل شيئا بالمجتمع البشري ، ففي اية لحظة ستجد مجتمعا يعج بالملايين .(١)

(١) نوشه ، فاروق - مع الادباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد ٦ ، حزيران سنة ١٩٦٠ - ص ١٨ و ١٩

انتحار نفيسه :

نفيسه ،في رواية "بداية ونهاية " ، هي ضحية الخبز ،والجنس ،والجهل • فهي فتاة لا مال ،ولا جمال ،ولا أب لها : " ومن المؤسف حقا ان المرحوم ،أبى على نفيسه ،ان تواصل تعلمها في المدرسة ،فالتعليم ينفع امثالها ،ممن لا حيلة لهم "•(١)

بلغت نفيسه ،الثالثة والعشرين ،وهي تحسّ بحاجتها الى عطف ،وحب ،وحنان • فالواقع ان غريزتها الانثويه ،كانت الشيء الوحيد ،الذى سلم من النقص والضعف ،واستوى ناضجا حارا ،فلم يخل صدرها من عذاب سجين ،وقفت له تربيتها ،وكرامتها ،واسرتها ،بالمرصاد • فهي بنت ،وهي جاهلة ،ودميمه ،ويتيمه ،والاسرة كلها منشغلة بعد وفاة الوالد في تأمين استمرار حياتها •الاخ الاكبر حسن ،ترك البيت ،ليخفف مصروفه •والاخوان الآخران ،حرما المصروف وانصرفا الى التحصيل المدرسي •والام الارملة ،حملت عبء تأمين المعيشه ،بجدية وصرامه ، لم تبقيا مجالاً عندها لاية عاطفة "حتى الحزن نفسه محرم على امثالنا من الفقراء "•(٢)

لذلك ،وجدت في سلمان ابن البقال ،بعد ان اصبحت تخرج من البيت للخياطة في البيوت ،ولابتياع الحاجيات الضروريه ، وجدت فيه انسانا — ايا كان — يبدى نحوها ميلا ،ثم انه امكانية زوج •• مع انها كانت تشك في قبول اخوتها به ،فهم جميعا ذوو كبرياء ،لم يقدر الفقر ان يغلب كبرياءهم ،وتشك في قبوله هو بها ،وتشك انه يفكر فيها حقا •

اخوتها لا يقبلون به ،لانهم من اسرة موظفين ،وفي مجتمع البرجوازيه الصغيرة في مصر ، تحسّ طبقة الموظفين ،تعاليا على اصحاب المهن الحره • وهي مع مشاركتها اخوتها في احساسهم ،الا انها لدمامتها ،وفقرها ،وحرمانها ،وجدت في سلمان ،الانسان الذى ابدى نحوها ميلا ،ومسّ دون ان يدرى ،جرحها الدامي ،حين اخبرها انها اجمل فتاة رآها في حياته • وجدت فيه امكانية الخلاص •

---

(١) بداية ونهايــة — ص ٢٥
(٢) " " — ص ٤٤

أما سلمان ،الفتى المحروم ،فقد وجد فيها ،على دمامتها ،انثى تنتسب للجنس المحبوب العزيز المنال ،فرحب بهذه الفرصة التي تتيح له القليل من الحب . لكنه لم يكن نحو نفسه ،يمتلئ الثقة والطمأنينة التي بثها في روحها ،فقد كان اسير ارادة والده ،وعندما رأى الوالد أن مصلحته كتاجر ،ان يصاهر تاجرا آخر ،لم يستطع سلمان ان يرفض .

ولحاجة نفيسه الى المال ،تخيط هي ،ثياب عروس سلمان .

هذه المفارقات ،في رأى غالي شكرى ، " هي التي تصوغ مأساة نفيسه (رضيت بالهم لكن الهم لا يرضى بي) فاذا تراكمت هذه التناقضات واشتد صراعها ،جاءت لحظة ، فشعرت(بأن" با انها ينقلب رأسا على عقب ،وانها تغوص في اعماق ما لها قرار) ،وهي لحظة التحول الشامل ،لحظة التغيير الكيفي العميق في حياة نفيسه الازمة،الى نفيسه المأساة . فلم تعد فتاة فقيرة دميمة ،اوعانس فحسب ،بل اصبحت امرأة لا تملك احلام العذارى ،امرأة بلا مستقبل ."شريف" و "كريم" كما تفهم طبقتها الشرف والكرامة ."(١)

أى أن نفيسه ،وصلت الى نقطة اليأس من حياة شريفة كريمه ،يوفرها لها الزواج . ورغم ذلك ،لم تعتزل الحياة ،لأنه في رأى نجيب محفوظ ،كان هناك عامل غريزى اقوى من الشرف والكرامه بمفهومها المجتمعي ،عامل يرد لها كرامتها بمفهومها الانثوى الانساني ،هو عامل الرغبة المشبوبه ،التي تشتعل في دمها ،ولا حيلة لها فيها . " هذه الرغبة وحدها تأبى عليها ان تعتزل الحياة وتتوارى ،بيد انها لم تعترف بها امام شعورها وانكرتها ،وقالت لنفسها انها ترضى الهوان في سبيل النقود ،التي تحرج حاجة اسرتها اليها ،ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى ،وسرها — ان كان ثمة سرور — ان تدو لعينيها شهيدة ضحية لليأس والفقر."(٢)

---

(١) شكرى ،غالي — المنتمي — ص ١٥٩
(٢) بداية ونهايـــه — ص ١٦٤

ولذلك ، ومع علم نفيسه ، ان سلوكها يعدّ جريمة في المجتمع ، استمرت فيه ، لا للحاجة ، وهي التي تركت مهنة الخياطة ، بعد تخرج حسنين ، ولكن لأنها لا تستطيع التخلص منها ، وتشعر انها تشد اليه بقوة شيطانيه ، فلا تستطيع منه فكاكا و " ما الذ الغزل ولو كذب . حال مخزيه ولكنها ترد اليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهيضة الجناح ." (١)

كانت هي تسعى وراء كرامتها ، بعد ان اصبحت الكرامة عقدتها ، فالكرامة هي التي ازمت نفيسه منذ البدايه " لست الآ خياطه ، ليست كرامتي التي تعزعلي ولكن كرامتك انت يا ابي (٢) ". كانت شيئا ، وليست الآن شيئا على الاطلاق . عدم مخيف ويأس قاتل ، فقدت سلطان الارادة على جسدها ، وروحها ، وعواطفها . عقدة الكرامة شاركت في ازمة نفيسه ، وحولتها الى مأساة .

فحين تنبط نفيسه ، في بيت تستأجره ست روميه ، وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق ، ويبلغ اخوها الضابط ، حسنين ، تتجسد جريمتها امام ناظريها ، وتحسّ بالخوف وبالنقص ، وبالرغبة في الموت ، الذي عاشته بعد موت ابيها . " اني ميتة كأبي وفي باب النصر وانا في قبرا " (٣)

ولأنها انسانة حزينه ، وكئيبه ، ووهنه ، ويمنعها ضميرها من التعبير عن مشاعرها العدائية ضد الآخرين ، توجّه العداء لنفسها ، وتقرر ان تميت نفسها " لقد أجرمت .. اني اعلم هذا ... ولن اسألك غفرانا لست جديرة به .. لا اريد ان يمسك سوء بسببي ، حتى لو كان السبب هلاكي ، ثم بماذا تجيب اذا سئلت عما دفعك الى قتلي ؟ دعني اتم انا بهذه المهمة فلا يكدّر مكدّر ولا يدرى احد " . (٤)

انّ ارتباط نفيسه ، بعائلتها ، الى حد تضحيتها بكرامتها ، وعنائها من اجلها ، قد اجاز لها ان تضحي بحياتها ، في سبيل الا تفجع العائلة بسلوكها ، والا يتأثر مستقبل احد من اخوتها بانحرافها . وهذا ما اطلق عليه "دوركهايم" اسم الانتحار الغيرى ، أى ضد الأناني .

---

(١) بداية ونهاية — ص ١٦٥
(٢) " " — ص ٧١
(٣) " " — ص ٤٩
(٤) " " — ص ٣٦٩

انتحار حسنين :

واذا كانت نفيسه ، هي ضحية الخبز والجنس والجهل ، فان حسنين هو ضحية التطلع الطبقي والرغبة في تغيير الواقع المخجل . ولم يكن يهمه من تكون ضحيته ، اخته نفيسه ، الخياطة ، أخاه حسنا ، الذي احترف البلطجة ، والذي اعتبر حسنين ، حياته فضيحة يجب التستر عليها ، أو اخاه حسينا ، الموظف التعيس في طنطا .

بعد حصوله على البكالوريا ، لمح في دخول المدرسة الحربيه ، مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة ، والقوه ، والمظهر الخلاب . وكان له ما أراد ، بمال اخته الشقيه ، وأخيه البلطجي ، ونفوذ المفتش ، الذي اغرته مظاهر حياته المترفه ، فانفجر في صدره بركان من الطموح ، والسخط ، والتلهف ، على متع الحياة النظيفة المحترمه . وكان اخوف ما يخافه ، ان ينحصر في حياة ، كحياة حسين ، فيقطع عمره ما بين الدرجتين ، الثامنه والسادسة ، بلا امل ناضر .

وكان كل أمله ، ان يسدل على الماضي ستارا كثيفا ، فبات يخجل من اخيه حسن ، الذي مده بالمال ، ومن اخته الخياطه ، التي بذلت في سبيله كثيرا ، وبات يخجل حتى من قبر والده ، المكشوف بين قبور الصدقه . واصبح التغيير ، هو الحل ، للفرار من الماضي ، وكل ما يربطهم به ، حتى الأصدقاء والجيران . تمنى لو يغمض عينيه ثم يفتحهما ، فلا يجد أثرا للماضي كله ، خيره وشره ، وفي محاولته الفرار من ماضيه ، وحاضر اخيه حسن ، يتقدم حسنين ، لخطبة ابنة المفتش "لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . ولعله عرف على ضوء عينيها ، جانبا من نفسه كان غامضا ، وهو انه يؤثر في اعماقه الطموح ، على السعادة والسلامة ." (١)

وكان احرى بالطموح ، ان يوصله الى السعادة والسلامه ، لولا أن ما بنفسه اكثر من الطموح ، في نفسه تطلع طبقي ، انحرافي ، يفصح عنه نجيب محفوظ ، حين يلتقط من اعماقه ، هذه الكلمات

---

(١) بداية ونهاية - ص ٢٧٥

"اني اكره الفقر وسيرته ،ولا احب ان اخفض راسي ،بين الناس مرفوعي الرؤوس ."[1] اذن ، هو لا ينشد سعادته ،في حدود منحزاته ،وقد اصبح ضابطا ،وانما ينشد الوصول الى طبقة معينه . ومن هنا انحرافه كما يقول غالي شكرى " ان كراهيته للفقر تمثل الجانب الشورى ، أما ان يكون الدافع لذلك هو الرغبة في ان ترتفع رأسه بين بقية الرؤوس المرفوعه (أي ابناء الطبقة العليا) فان ذلك يمثل جانب الأنحراف ،الذى يؤدى به فيما بعد ،الى نهاية الطريق المسدود . فثورته تنحرف تمضي تلقائيا ،وتسلقا ،ووصوليه ،ومحاولة سانحة للصعود الى اعلى ."(٢)

لقد نجح حسنين ،في ان يغيّر لقب اخته نفيسه ،من خياطه ،الى اخت الضابط ،وفي ظنه انه غيّر واقعها ،وقضى على جانب كبير من اسباب شعوره بالمهانه .

ونجح في تغيير المنزل الذى كانوا يقيمون فيه ،وفي ظنه انه بذلك يمحو الماضي بكل ما له علاقة به ،من مقومات تصنعه : المكان ،والزمان ،والناس . ولكنه لم ينجح ،ولم يقدر ،ان يغيّر واقع اخيه حسن ،البلطجي ،المهرّب ، الذى ود لو يقتله او يقتل نفسه ،حينما كان البوليس يطارده " بودى لو اقتل ، لن يروح عن صدرى اقل من القتل .. دعيني اقتل نفسي ما دمت لا اجد من اقتله .."(٣) أراد ان يقتل نفسه ،لانّه شعر بأن كرامته تحتضر .

وعقدة الكرامه ،هي المحور الأخلاقي في حياة البرجوازيين الصغار ،فالكرامه ،هي الحصله الوحيدة الصالحه ،لأنّ تكون تعويضا للفقر الأجتماعي والأقتصادى . والكرامه ،هي في الواقع عقدة حسنين ،التي وصلت به الى حد ان يقتل او يقتل .. تحسّس كرامته ،من ساعة دفن والده ، فقد كان حريصا على " الا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة ."(٤)

---

(١) بداية ونهاية ــ ص ٢٣٤
(٢) شكري ،غالي ــ المنتمي ــ ص ١٦٧
(٣) بداية ونهايه ــ ص ٣١٠
(٤) " " ــ ص ١٤

وتحسس كرامته ،عندما اعلنت الام ،ان نفيسه ستعمل خياطه ، " لن تكون اختي خياطه ،كلا ولن اكون اخا لخياطه ." (١) وتحسس كرامته ،وهو يقف امام اخيه حسن ،يطلب القسط الاول لدخوله الحربيه " اشتد اشمئزازه وحنقه ،ولعن الحاجة من اعماق قلبه ،في يأس وتحسر . هل يستطيع ان يغضب لكرامته حقا ." (٢) وتحسس كرامته ،وزملاؤه في المدرسة الحربيه، يهزأون من خطيبته ،"وشعر بكرب وامتعاض ، وبجرح عميق في كرامته". (٣)

وحسب حسنين ،انه استطاع ان يتغلب على كل هذه العقد ،بأيقاف نفيسه ،عن عملها كخياطه ، وبتغيير المنزل ،وما يعنيه من ارتباط بموت الوالد ،والفقر ،والجيران ، وبفسخ خطوبته ،ومحاولة خطبة ابن البيك .

وكان يمكن ان تنتهي عقدته مع اخيه حسن ، بفرار هذا الاخير ،باختياره " يجب ان اختفي سأغادر البيت حالما اقدر على المشي ،وربما غادرت القطر كله ".ويتساءل حسنين " هل يمكن ان يحدث هذا قبل ان تقع الواقعة ؟؟ هل يختفي حقا ،فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر ... ؟! فليتقدم حيث هو ،يجب ان احيا حياة مطمئنه . (٤)

الا ان القدر ،كان اقوى من ارادة التغيير الفرديه ،التي جابه بها حسنين ،حياته . دعمه القدر ،في صورة بوليس ،ينبئه بأن اخته ،ضبطت في بيت سري . تلك الفتاة الفقيرة ، الدميمه ،التي دفعت عجلة انهيارها ،محاولتها ذات ليلة ،ان تتجاوز عقدة الكرامة ،مع ابن بقال .

وفي يأسه وذله ،يقرر ان يقتلها . وتثنيه عن قراره ،لانها هي ستقتل نفسها . وبرغم ان قرارها زحزح عن عاتقه حملا ثقيلا ،الا انه فقد شعورا بالكرامه ،لازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه .فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة ،الى آخر ينشد السلامه . وساق اخته الى

---

(١) بداية ونهايـة — ص ٢٤
(٢) " " — ص ٢٤٣
(٣) " " — ص ٣١٤
(٤) " " — ص ٣٦٠

الموت ،وكأنه يسوق حوان الفقر ،وذل الكرامه ،وشقوة الطموح ،وتعاسة التطلع الى اعلى ..
فما كاد النيل يبتلع صرختها امام الموت – آخر مظاهر الحياة – حتى كان يفكر في مصيره ..
انه موقف تتوافر فيه اسباب الانتحار ، فهو قد تصرف مع اخته تصرفا عدائيا لا اجتماعيا ،
فقوى شعوره بالذنب كما يقول هيربرت هندين .(١) ووجد ان نفسه ،التي طالما تاقت لتدمير
أى عائق يقف في طريقها ،هي العائق، فدمرها .

لقد أبدى مثل هذه الرغبة،وهو في موقف يأس . موقف ،احس فيه ان انسانا ما ،
يقف في طريق حياة نظيفة ينشدها " بودى لو اقتل ،لن يروح عن صدرى اقل من القتل ..
دعيني اقتل نفسي ،ما دمت لا اجد من اقتله ."(٢)

يريد ان يقتل ،لكنه بحكم مركزه الاجتماعي ،كضابط ،يخشى العواقب ،كذيوع الجريمة
والعقاب "كيف تنتهي هذه المحنة ؟ وكيف اخرج منها ؟ أيمكن حقا ان يسدل عليها
الستار دون ان تفوح منها رائحة حريبة بأن تجعل من هذا العناء كله ،عبثا لا طائل تحته ،
ما اشد عذابي ،كيف اتغلب على هذه التعاسة كلها . اني اسوقها الى الموت وليس الموت
بنهايه ،ولكنه بداية لتعاسة اخرى تنتظرني في البيت ."(٣)

ويعترف حسنين، لنفسه،وهو يقف امام جثة اخته، انه ما وجد في نفسه يوما الا تمنيات
الدمار لمن حوله ، أى ان رغباته المكبوتة كان لا بد لها من التعدي، ليحول عدوانه ضد
نفسه ما دام قد عرّاها " أحق اني الثائر لشرف اسرتنا ؟ اني شر الأسرة جميعا . حشرة يعرفها
الجميع ،واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسي اقبح ما فيها . رباه لقد قضي عليّ ."(٤)

(1) Hendin, Herbert - Suicide and Scandinavia - Page 147

(٢) بداية ونهاية – ص ٣١٠
(٣) " " – ص ٣٨١
(٤) " " – ص ٣٨١

انتحار سرحان البحيرى :

في رواية " ميرامار " ، يذهب سرحان البحيرى ، الشاب الثورى الاشتراكي ، محاسب شركة الغزل بالاسكندريه ، وعضو مجلس ادارة الشركة المنتخب ديمقراطيا عن الموظفين ، وعضو لجنة الاتحاد الاشتراكي ، ضحية انتهازيته . اذ تتركز عقدته ، كما يقول احمد محمد عطيه : " في طمعه وتطلعه الطبقي ، وعدم رضاه بمكاسب الثورة ، ومحاولة الحلول محل البرجوازيه الكبيرة المنهارة ، واخذ امتيازاتها ." (١)

ومنذ البدء ، يحدد نجيب محفوظ ، التناقض الذى يصوغ سرحان " يا صاحبي انني بطبعي عدو اعداء الثورة الا تفهم ؟ واني من الموعودين ببركاتها الا تفهم ؟ " (٢)

هو صديق للثورة ، لا لأن الثورة خير يعم الجميع ، بل لأنها وعدته ببركاتها ، بعد ان اصبح هو الدولة " كنا وقتذاك اعداء الدولة .. اجل ... أما اليوم فنحن الدولة ." (٣)

ولأنه هو الدوله ، ولأنه لا يجد للحياة معنى بلا فيلا ، وسياره ، وامرأة ، فليعمل أى شيء ليحصل على الفيلا ، والسيارة ، والمرأة ، ولو كان هذا الشيء ، سرقة الشركة نفسها ، واختلاس اموالها ، فمال الشركة " مال بلا صاحب ." (٤)

ويبدو في موقفه هذا من الحياة ، اشبه ما يكون بموقف حسنين في رواية " بدايه ونهايه " . حسنين ، اختار الحربيه ، ليجعل من الالتحاق بالجيش ، سلما يتسلق به الى الطبقة العاليه آنذاك ، وسرحان ، اختار الثورة ليجعل من الاشتراكية ، سلما ، يتسلق به الى الطبقة الجديدة ، الوارثه لأمجاد الطبقات القديمة .

---

(١) عطيه ، احمد محمد – نجيب محفوظ وطريق الثورة – الآداب – العدد ٥ ، أيار ، سنة ١٩٦٧ ، ص – ١٠

(٢) ميرامار – ص ٢٢٥

(٣) " – ص ٢١١

(٤) " – ص ٢٠٨

وفي تصرفاته اليومية العادية ، المنبثقة عن نشأته الفقيرة ، والمتطلعة صوب الطبقية ، تبرير لنهايته المفجعة . هو يطرد المومس من حياته ، بحثا عن حب شريف ، وحين يعثر على زهره ، ويناوش حبها فؤاده ، فان حزنا عميقا داخله ، يدفعه الى القول متحسرا " لو كانت من اسرة .. لو كانت على علم او مال ".(١) فهي اذن ، ليست من الطبقة التي تصلح للزواج كما يريده " الزواج مؤسسة اذا لم يرفعني من ناحية الاسرة درجة عما حدواه ؟ واذا لم تكن العروس موظفة على الاقل فكيف افتح بيتا يستحق هذا الاسم ".(٢) تماما كما هو حسنين ، بهيه ، ليخطب بنت الباشا ، لتؤمن له حياة طبقية أعلى .

لذلك لجأ سرحان ، الى المدرسه المولفة ، يخطبها . فهي بنت اسرة ، ووالدها يملك عمارة متوسطة بكرموز .

وهو يمثل الثورة الاشتراكيه ، بادعائه ، الا انه دائم الذعر من فكرة مصادرة الثروات . وفي رأى غالي شكرى ، ان سرحان ، " لم يكن مهتما اهتماما حقيقيا بالسياسه ، رغم نشاطه الموفور فيها ، ولكنه كان مهتما اهتماما جنونيا ، بأن تتم العملية ، وتنجح الصفقة ، ويصبح في غمضة عين ، وبحسبه بسيطه من اثرياء البنوك ، لا زهره ، العاطفه الوحيدة الصادقه ، التي خفق لها قلبه ، ولا الاشتراكيه ، التي تقربها الى مجلس الادارة صباحا ، وملهى الحنفـواز ليلا ، بمستطيعين ان يحولا دون اختياره لهذا الطريق الى الثروة . وهو الطريق المسدود في " بداية ونهاية " ، امام حسنين ، نموذج البرجوازى الصغير المتسلق قبل الثورة ، وهو ايضا الطريق المسدود ، في " ميرامار " بعد الثوره ، الطريق المؤدى بالمنتمي اليها هذا النوع من الانتماء ، الى الهزيمة الكاملة ، وليست العين الاخلاقية اليقظة ، هي التي سدت الطريق في وجه سرحان ، وانما الثغرات التي لا نهاية لها قد اوصدت الباب نهائيا . ووقعت العملية برمتها

---

(١) ميرامار — ص ٢٢٤
(٢) " — ص ٢٣٨

في شباك الأمن ،وتبرز على سائق السيارة المحملة بالبغاء ، تماما كاقتياد نفيسه ،الى القسم من بيت الدعاره ،ولم يعد امام سرحان البحيرى ،الآن يؤكد من جديد ،مأساة حسنين ، ذاك ألقى بنفسه في النيل ،وهو يحمل على كتفيه نجم الانضواء المتسلم ،وهنا مزق شريانه ، وهو يحمل على كتفيه كافة علامات الانضواء للثورة ،من عضوية هيئة التحرير ،الى عضوية لجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي العربي ."(١)

ولكنه في الواقع ،لم يكن يؤمن بالثوره ، كحل مثالي ومنصف للواقع الاجتماعي، والاقتصادى والسياسي ،الذى نبتت فيه شخصيات نجيب محفوظ ،في "الثلاثيه" و "خان الخليلي" و "زقاق المدق" و "بدايه ونهايه" و "السراب" . وفي حواره مع طلبه مرزوق ،الرجعي ، لا يندفع الى أقناعه بمزايا الثورة ،وانما يعتبرها مهربا من حلين اسوأ منها .

"سرحان — هل ادلك على عزاء حقيقي ؟
طلبه — ما هو ..؟
سرحان — البعض يضيقون بالثورة ،ولكن أى نظام يمكن ان يحل محلها ؟ فكر قليلا اوكثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين فاما الشيوعيون واما الاخوان ، فأيهما تفضل على الثورة ." (٢)

انبثاقا من عدم ايمانه بالثوره ،اعتدى عليها ،سرقها ،لكنه حين اكتشفت سرقته ، رد عدوانه الى نفسه ،لأسباب تتعلق بمركزه الاجتماعي ،خاف الفضيحه واحس بجريمته "اني ارتجف ولا تكاد تحملني قدماى . فكرت لحظة في الهرب ،ولكني عدت — تحت عيني الحرسون — الى المائدة . اليأس يزحف بسرعة مذهلة . وخوف مثل الشيطان . المبت من البارمان زجاجة واندفعت في الشرب بلا وعي ،والبت موسى حلاقة ثم اودعتها جيبي . انفصلت عن البار بشيء من المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجي مترنحا يائسا متعجلا .. عبرت الطريق وبودى لو اركض ركضا .. كنت يائسا .. يائسا .. يائسا .. ." (٣)

(١) شكرى ،غالي — نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة — مجلة مواقف — العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩ ، ص — ١٦٣ — ١٦٤
(٢) ميرامار — ص ٢٥٩
(٣) " — ص ٢٦١

يبدو أن نجيب محفوظ ، يرمز بانتحار سرحان ، الى انتحار فئة من المجتمع ، لا تزال المطامع الفرديه الانانية تسيّرها . لقد انتفى من موت سرحان ، عامل القدر ، وان فسّره بعض النقاد، بأنه شبيه السرقته . وانتفى عامل الصراع لأجل حياة نظيفة شريفة ، كما اراد ها عامر الحلو ، وصابر الرحيمي ، وحتى حسنين .. فهذا رجل ، وصل لأن يكون الدولة باعترافه ، ومع هذا سرقها وسرق نفسه ، وخانها فخان نفسه ، وهكذا حوّل رغباته العدائية ضد نفسه مباشرة ، بالانتحار .

وقد تفاوت اثر موت سرحان ، بالنسبة لمجتمعه الذى عاش فيه — وهم سكان البنسيون — ، كل حسب ارتباطه بالميت ، ونظرته للحياة ، وموقعه في المجتمع :

ماريانا ، صاحبة البنسيون ، التي تمثل البقية الباقية من ذكريات الاستغلال الأجنبي لمصر ، لا يهمها من موت سرحان شيء " سوى ان يكتشفوا القاتل عاجلا ، وان يكون بعيدا عنا كل البعد ، والا أرى وجه رجل من رجال البوليس ." (١)

وطلبة مرزوق ، الذى يمثل الطبقة الحاكمة قبل الثورة ، والذى يرى أن الثورة لم تصنع شيئا الا انها سلبت البعض اموالهم ، وسلبت الجميع حريتهم ، يقف نفس موقف ماريانا " كم اتمنى ذلك أيضا ." (٢)

وزهره ، الفتاة الريفيه البكر ، التي تجسد الوجه الثوري الأصيل لمصر ، صعقت ، وانهارت تماما في حجرتها ، وقد اغلقت الباب . فلقد احبت سرحان كثيرا ورغبت في الزواج منه ، لكنه خانها ...

— "ماذا اعددت للمستقبل ..؟؟

قالت وهي ترنو الى الأرض ما تزال — كالماضي تماما ، حتى احقق ما اريد ." (٣)

---

(١) ميرامار — ص ٨٢
(٢) " — ص ٨٢
(٣) " — ص ٢٧٢

وعامر وجدى ،الصحفي الوفدى القديم ،الذى يشعر بأبوته الروحيه للثورة ،ويتجسد ذلك في خلع ابوته على زهره ، يهمس في اذنها :

- " ثقي من أن وقتك لن يضيع سدى ،فان من يعرف من لا يصلحون له ،فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وكعادتي لدى جيشان الصدر ،هرعت الى سورة الرحمن ،فرحت اتلو :الرحمن علم القرآن ،خلق الانسان .. علمه البيان ." (١)

وبهذه الايات ،كما يقول غالي شكرى " يضيء نجيب محفوظ ، بريق الأمل وسط الظلمة الشاملة ،الأمل الانساني العام ،والمجرد ،الذى يتجاوز ما هو خاص ومحدد . فالهزيمة المحددة التي تعنينا ،ليست شيئا ،اذا قيست بآمال لا نهائيه للسماء والأرض ." (٢)

ومنصور باهي ،الشيوعي المرتد ،المنتفع الثاني من الثورة ،يحاول ان يلصق تهمة تتل سرحان ،بنفسه . وبالفعل ،ركله وهو ميت ، وأراد ان يقتله ،لولا انه نسي انه ،اراد ان يقتله ،لانه في نظره " يستحق القتل لصفات وتصرفات هي مرذولة في ذاتها ولكنها ليست بقاصره عليه ." (٣)

صفات يشترك هو الاخر فيها ، فكأنه اراد ان ينتحر ،بقتل سرحان ..

---

(١) ميرامار - ص ٢٧٩
(٢) شكري ،غالي - نجيب محفوظ وازمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد ٥ ،سنة ١٩٦٩ - ص ١٦٤
(٣) ميرامار - ص ٢٧٧

انتحـار علام يســرى :

وينتحر علاّم يسرى ، في اقصوصة " الختام " من مجموعة " بيت سيء السمعة " ، وهو في ذروة انتصاره العملي ، والاجتماعي : اثر اكتشاف احد مرؤوسيه ، تزويرا في شهادة ميلاده .

فاكتشاف التزوير ، يعني بالنسبة لعلاّم يسرى ، احد أمرين : اما ان يقع اسير المولف ، فيحاول ارضاءه بالتورط في تصرفات لا لما عف عنها ، واما ان يرفض تهديد المولف ، فيفتضح امره . " وفي الحالين لا يمكن ان تنسى كرامتك ." (١)

ويتعاطف نجيب محفوظ ، منذ بدء الاقصوصة ، مع علاّم يسرى ، الذي يصفه بأنه " مثال طيب حقا في وسط ملعون ، وذلك الخطأ الذي ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما ، ينفحر على غير انتظار كلغم منسي . وقد ارتكبه ليقبل في المعهد ، وحتى لا تضيع آماله هباء . ولم يكن مغامـرا ، ولا مستهترا بالمبادئ ، ولكن اغتاله الضعف والأمل . وكان موقفا رهيبا عندما قدم اوراقـه ، فنظرة مدققة من عين المسجل ، كانت كفيلة بنبذه من المجتمع . وآمن بأن جريمته ، قد دفنت في الملف الى الأبد . ولكنه لم ينس انه سيغتال الحكومة في عامين من مدة خدمته ، ولم يرحـه ما قدم من عمل مجد واستقامة ، فعزم على طلب الاحالة على المعاش ، عندما يحل موعده الحقيقي ، الذي لا يعلم به احد سواه . اجل طالما ذكر نفسه بذلك ، ولعل مرض القلب الذي انتابـه منذ اعوام ، كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكه الخفيه المنغرزة في ضميره ." (٢)

علاّم يسرى ، لم يقترف جريمة بسبب الفقر ، ولا بسبب التسلق ، ولا بدافع الانتقام من انسان خان مثله .. ان جريمته ، هي احتيال على القانون ، هي التزوير ، حتى لا تضيع آماله هبـاء . وكان ذلك في عهد الشباب المبكر . ومع انه انكب على عمله بأخلاص ، طوال خمسة وثلاثين عامـا ،

---

(١) بيت سيء السمعة - ص ١٤٩
(٢) " " " - ص ١٤٤

فكان مثال الرجل الكفيّ ، الذليب السمعه ، الا انه لم يستطع ان يمحو جريمة ، لو اكتشف في البدء لكانت "كفيلة بنبذه من المجتمع" . ولو اكتشفت وهو في القمه ، بعد ان رقي الى وكيل وزارة ، وبات يتأهب لتزويج ابنته الوحيده ، لأصبح في احد حالين : اما اسيرا ذليلا لمطالب متسلق انتهازي ، او رجلا مفضوحا بالمجتمع .

وكان عليه لكي يتخلص من هذا الوضع ان يقتل ، اما الموظف واما نفسه ، ودمر نفسه وهو يعني قتل الموظف . وفي مونولوج داخلي تتأجج رغبته في القتل . يجري المنولوج بشكل حديث مع الموظف "أتحسب انك ملكت كل شيء ؟ انا اقول لا ، فما انت صانع ؟ أجل نحن في الخلاء حقا ، كورنيش النيل ، الا تحب هذا المنظر الخلاب ؟ لعلك خائف ، ارأيت ، كان ينبغي ان اكون انا الخائف لا انت اليس كذلك ؟ لا .. لن يفيدك الصراخ ، مت كحشره ." (1)

وشددت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيعه .. ووقع حادث اسيف في طريق الكورنيش .

وقال المحزونون : جرى القضاء عليه ، وهو يترتب سعادتين ، ترقيته ، وزواج كريمته .

---

(1) بيت سيء السمعة — ص ١٤٨

انتحـار شـــداد :

يورد نجيب محفوظ نبأ انتحار شداد، اثر افلاسه بأيجاز . وهو لا يتناول الانتحار كحدث مصيرى - كما في حال نفيسه وحسنين - ولكن ليكمل به عناصر موقف نفسي، تأملي، لكمال . اذ تتداعى في نفس كمال، بلقائه برفيق شبابه المبكر، صور الماضي التي ولت، واحدة تلو اخرى . صورة الحب، متمثله بعايده . صورة الصداقه، متمثلة بحسين شداد . صورة الحماسة، العارمه، متمثله بفهمي .. وحتى قهوة محمد عبده، مأوى ذكرياته، ستهدم هي الاخرى، فلا يبقى لها من أثر . ويجيء نبأ انتحار شداد، ليكمل هذا الموقف . "الحياة عبث . أهذه هي نهاية الحلم القديم ؟ الافلاس والانتحار كأنما قضى بأن تؤدبه هذه الاسرة بأدب الاغنياء الساقطين ." (1)

انّ شداد (٢)، الذى لم يتحمل صدمة افلاسه، بعد ان التهمت البورصه آخر مليم في حوزته، فانتحر، قد حطم صورة مثاليه، طالما تاق كمال للوصول اليها : القصر، والحديقة، والكشك، والنعيم . صورة حياة الطبقة العليا، التي رفضت حب كمال . "تصور آل عايده في حياة متواضعه : كحياة هؤلاء الناس حولنا . فهل تمضي بدور يوما بصورب مرفو ؟ وهل تتخذ من الترام مركب ؟ أو تتزوج من موظف بمصلحة كذا ؟ ولكن ماذا يهمه من ذلك كله ؟ آه .. لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين، ومهما يكن لعقلك من رأى في الطبقات، وفوارقها، فانك تشعر من جراء هذا الانقلاب بانهيار مخيف، ويعزّ عليك ان تسمع بأن "مثلك العليا، تتمرغ في التراب ." (٣)

---

(١) السكريه - ص ٦٣
(٢) انتحار شداد، ينطبق عليه ما اسماه اميل دوركهايم في كتابه "الانتحار" الـ Anomic Suicide راجع ص - ٢٥٨
(٣) السكريــــه - ص ٦٤

تقاليــد المـوت :

ذكرنـا في المقدمة أن نجيب محفوظ ، يرافق شخصياته مرافقة تفصيلية ، تكاد تصل الى حـد المسح الاجتماعي الشامل . ويبلغ به رصده وتسجيله ، الى التعريف بأدق التفاصيل ، وكنا تعرّفنـا على تقاليد عامه للموت ، عند الطبقة الوسطى ، كالحرص على جنازة لائقة ، وقبر لائق ، وعلى زيـارة القرافه ، وتزيينها بالزهـور ، وتبادل الهدايـا بين الجيران واهل الميـت . وفي رواية " خـان الخليلي " ، يعدد الكاتب مراسم الدفن ، خطوة خطوه . وقد رأينا ان نسجلها في بحثنـا لابرازهـا وجها من وجوه احتفالات المجتمع المصرى بأحد مظاهر حياته العامه ...

والخطـوات هي : -

١ - يغطى الميت حتى الرأس بالغطاء ، قبل غسـله وتكـفينه .

٢ - يبتاع الكـفن من حانوت بالغوريه ، والتاجر يقيس القماش ، ويقطعه ، ويلفه ، دون ان يعني له الموت شيئـا .

٣ - يستخرج تصريح بالدفن ، من مركز الصحة ، والموظف يسأل بلهجة باردة وبعدم اكـتراث ، عن اسم الميت ، وعمره ، ومرضه ، وهو يعرف انه بدون هذه الورقه ، لا يمكن ان يغيب الميـت في باطن الارض الى الابـد .

٤ - مرتزقة الموت ، يجيئون تباعا ، يحملون ادوات الغسل والنعش ، براثه عيونهم ، تويـة سواعدهم ، يكـتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع ، سرور التاجر بالربح المرتقـب .

٥ - النعش يتهادى على الاعناق ، في حلة الشباب البيضاء ، وتتبادله الايدى والمناكـب ، وقد وضع الطربوش عليه .

٦ - الاب ، والاخ ، والاقربون ، يسيرون خلف النعش مباشرة ، بوقـار يحفظـه الايمـان .

٧ - المقبرة في ثوب قشيب ،فرشت ارضها بالرمل ،واصطفت عند مدخلها الكراسي ، ودار بها السقاة .

٨ - يوضع النعش على الارض ،ويكشف الغطاء ،ويرفع الميت ملفوفا في الكفن ،وتطبق عليه الايدى ،وتغيب به في جوف الارض . ثم يصعدون بعد قليل من دونه ، ويجثون عليه التراب ،حتى يستوى بالارض .

٩ - ينضحون الماء عليه ،ويغيب عزيز وتنتهي حياة .

١٠ - يعود الاعلون الى البيت ،البيت كئيب ،وقد كم رباشر حجرة الراحل ،واغلق بابها .(١)

---

(١) خان الخليلي -ص ٢٥٨ - ٢٦٠

ملاحظة عامة

يتداخل تأثير الموت في المجتمع ، وتأثره به ، تداخلا يكاد يكون وحدة هارمونيه ، فهو يأخذ من المجتمع ويعطيه ، يفعل فيه وينفعل به ، يؤثر فيه ويتأثر به . فللموت من جهة ، تأثير سلبي في الحياة الاجتماعية ، بما يخلفه من يتم وثكل ، ومن فقدان المعيل ، او الحبيب . وله تأثير ايجابي ، في حال الوراثة ، والانتفاع من مخلفات الميت ، والخلاص من حالة اجتماعية ، او نفسيه ، او ماليه معينه . ومن جهة ثانية ، يؤثر المجتمع في الموت ، فيدفع اليه ، كما في حالات القتل الانتقامي ، والقتل الاجرامي ، وموت الفتوه ، والقتل السياسي ، وموت العاشق الشاب بمرض خبيث طواه في صدره خشية افتضاح امره في المجتمع ، والانتحار .

نلمح هذا التداخل في معظم اعمال نجيب محفوظ الروائية او القصصية ، فللموت كل خصائص البطوله : له القبل ، والذروه ، والبعد . والدور الذى يلعبه ، رئيس في مسيرة الحياة ، اذ يحدد الطريق لكثير من الشخصيات ، بما يخلف من آثار اقتصاديه ، ونفسيه ، وعاطفيه . كذلك فان "الحياة الاجتماعيه" بما يميزها من عادات وتقاليد ، وبما يلابس انسانها من غرائز ، وبما يخالج صدور زعمائها من تطلعات للحرية والاستقلال ، تمثل دورا مهما في احداث الموت . والموت بدوره ، يمثل دورا مهما في احداث المجتمع . وهكذا تتشابك الحياة والموت ويتداخلان . ونورد مثلا رواية " بداية ونهاية " : بدأت بالموت ، وظلت احداثها تنمو بتأثير ما خلّفه هذا الموت في ضحاياه من يتم وفقر ، وما توجبه الحياة من كفاح واستمرار . وتتأزم الاحداث بفعل تصارع هذين الجبارين ، حتى تنتهي بأثنين من افراد العائلة الخمسه ، الى الموت . فيكون الموت قد أثر في مسلك الشخصيات الاجتماعي ، والنفسي ، والعاطفي . ويكون هذا المسلك ، قد اودى بحياة هذه الشخصيات . وفي هذه الحالة ، يصح عنوان الروايه مكررا الى ما لا نهايه : " بدايه ونهايه " ، ونهايه وبدايه ."

الفصل الثالث

الأبعاد الميتافيزيقية للموت

١ ـ الترابط بين المشكلة الاجتماعية ، والقضية الميتافيزيقية .

٢ ـ أنواع الموت بالمفهوم الميتافيزيقي .

أ ـ الموت حادثة .

ب ـ الموت القدري .

ج ـ الاستشهاد من أجل العدالة والحرية .

د ـ الموت في سبيل المعرفة .

١ ـ الترابط بين المشكلة الاجتماعية والقضية الميتافيزيقية :

وكما يتشابك الموت والمجتمع ويتلاحمان ، فيفعل فيه ويتفاعل معه ، كذلك تتشابك القضايا الاجتماعية ، والقضايا الميتافيزيقيه ، وتتلاحمان .

فحين يحدث الموت ، يحدث في ارضية اجتماعية ، سواء كان موتا بالصدفة ، او بالقتل ، أو بالمرض ، او بالانتحار ، او بالسكتة القلبيه . فالميت انسان ، والانسان كائن اجتماعي ، يولد .. يعيش .. ويموت .. وهو في صراعه من اجل الحياة ، يقف امام المشكلة الاجتماعية ، لكنه في الوقت نفسه ، كما يقول احمد عباس صالح ، يقف امام المشكلة الميتافيزيقيه ، فهو اذ يستولد الطبيعة مقومات حياته المادية ، يفتش لغزها . "كأن المشكلتين الاجتماعية والميتافيزيقيه ، لدمما طبيعة واحدة ، او هما مشكلة واحدة . والديانات البدائيه ، والديانات الحديثه ، تشترك جميعا في ذلك الخلط بين التنظيم الاجتماعي ، والحل الميتافيزيقي . وما من فكر اجتماعي الا ويضرب في جذور المشكلة الميتافيزيقيه ."(١)

وكما ان" الظواهر الطبيعية ، تخضع للمنطق ، كذلك فان" الموت نفسه ، في بعض صوره ، يخضع للمنطق ، فيمكن الاجابة كيف حدث الموت ، اما لماذا حدث ، فذلك سر الاسرار .

رشدى عاكف ، في " خان الخليلي " مثلا ، مات لانه مرض ، واهمل مرضه ، لاسباب احتماعيه : الخوف من الفقر اذا فقد وظيفته بسبب التغيب للاستشفاء ، والخوف من ان يفقد حبيبته ، اذا عرف المجتمع بمرضه . اما لماذا مات رشدى عاكف ؟ فلا احد يعرف . وفي وقدة الالم تخاطب الام الثكلى ربها متسائلة : "ماذا يضر دنياك لو تركت لي ابني ."(٢) ولكن هذا السؤال ، يظل بلا جواب .

---

(١) صالح ، احمد عباس ـ قراءة جديدة لنجيب محفوظ ـ مجلة الكاتب ـ العدد ٦١ ، سنة ١٩٦٦ ـ ص ١٠٣

(٢) خان الخليلي ـ ص ٢٦١

وحتى في حالات الموت الفجائي،الذى يحصل عن سكتة قلبيه مثلا ،أوعن زلة قدم ، أو حادث سيارة ،يمكن الأجابة عن السؤال الأول ،الذى هو "كيف" علميا ، واجتماعيا . أما "لماذا" ، فيظل الجواب لغزا .

يموت الانسان بالسكتة القلبيه ،لمرض في الدم ،او في الشرايين ،او في صمامات القلب . ويموت بزلة قدم ،لانه اراد ان يتفادى قشرة موز ،او ولدا يبول،ويموت بحادث سياره ،لانه لم ينتبه وهو يقطع الطريق ،أو لان (فرامل) السيارة تقطعت .أما لماذا هذا الانسان دون غيره ، وما يضر "دنياه" لو تركهم لامهاتهم ،وحبيباتهم ،وأولادهم ؟فهنا السر ..

نلقى هذه السببيه ،والقدريه الجبريه ،في كل احداث الموت ،عند نجيب محفوظ . وفي رأى ادوار خراط " بأن القدريه الغريبه ،العميقة الجذور ،في اولى قصص نجيب محفوظ . قدريه تستخفي راسخة وليده ،في قلب الأساس المكين المدفون ،الذى تقوم عليه بعد ذلك ، بنايات محكمة التشييد ،دقيقة التصميم ،لا تغفل عن ادق التفاصيل ،ولا تعرف تعنى كل العناية بأوهى الروابط ،كما تعنى بأنواعها بنيسة ،وانحناءها قواما . وعالم نجيب محفوظ ،عالم المأساة المتهدده ،والموت المتربص ،والأخطار الذى يصيب أعز الأماني ،ويحبط اعنف الشهوات ،العالم الذى تجرى فيه مصائر الناس ،في كون ما تفتأ تستحوبه فلا يجيب . تتسلب منه السعادة ،والفهم ،والأستقرار ،والثروه ،والأيمان ،فلا تظفر في الغالب ،الا بالبؤس والحيره والسقوط ." (١)

كثيرون هم الذين سقطوا صرعى القدر ،أتاهم الموت وهم لا يدرون ،اثناء عبورهم الطريق ، او وراء مكاتبهم . وكثيرون الذين ناضلوا من اجل حق عام ،وعدل عام ،ومعرفة عامه ،ثم سقطوا شهداء هذه المثل اللا مرئيه .

---

(١) خراط ،ادوار – عالم نجيب محفوظ – مجلة المجلة ،العدد ٧٣ ،سنة ١٩٦٣ – ص ١٧

٢ - أنواع الموت بالمفهوم الميتافيزيقي :

أ - الموت صدفة :

- القتل غير المتعمد .
- الموت بحادث تافه .

القتل غير المتعمد :

حوادث القتل غير المتعمد ، كثيرة في اعمال نجيب محفوظ ، وله اكثر من شكل . أخ يضرب اخاه ، في شجار عادى ، فيسقط احدهما ميتا . رجل يصفع فتوه ، فيهوى صريعا . رجل يصوب مسدسه ، ليقتل خصمه ، فتخطئه الرصاصات وتستقر في قلب انسان ، كان يقف بالصدفة ، مكان الهدف .

وفي لحظة ، يصبح الانسان ، مجرما منبوذا . هو لم يختر هذا المصير ، ولم يرده .. وفي لحظة يموت انسان ، وتختفي حياة .

في رواية "اولاد حارتنا" ، يتشاجر اخوان توأمان ، امضيا حياتهما يرعيان الغنم سوية ، يتشاجران بدافع الغيره ، التي اضرمها ايثار احدهما لأحد عما ، ولم يكتفيا باللطم والصفع ، فتبادلا رمي الحجارة ، وأول حجر يرميه "قدرى" ، يصيب "همام" ، في جبهته ، فينكفئ على وجهه ، وتكون نهايته . " كأنما القى الى الارض من مكان مجهول فلم يمت اليها بسبب ."(١) الشاب الواعد المحب انتهى بلحظة وكأنه لم يكن .

لقد اراد قدرى ، - الأخ القوى - ان يرعب اخاه ، وان ينفس عن غيظه بضربه . لكن الموت غلبه ، " هو لم يدعه ، ولم يقصده ، ولكنه يجيء كما يحلو له ." (٢)

---

(١) أولاد حارتنا - ص ٩٦ - (قدرى وهمام ، نما قابيل وهابيل)
(٢) " " - ص ٩٦

وأحس قدرى — وهو القوى الجبار — بعجزه امام الموت ، هذه القوة الجبارة التي ان جاءت كما يحلو لها ، فلا راد لها " ما دمت لا استطيع ان ارد الحياة ، فلا يجوز ان أدعي القوة ."(١)

ونبحث عن السبب الذى أودى بحياة همام ، قضاء وقدرا ، فاذا هو اللا عدل . فلماذا يؤثر اخ بخيرات الجد ، ويحرم اخ ؟ صحيح انه لم يقصد قتله ، ولكن لولا احساس قدرى بالاجحاف ، والظلم ، لما تشاجر مع اخيه ، ولما هجم الموت هجوما غاشما .

والعدل ، في رأى الأب ، ادهم [٢] ، الا تذهب روح الشاب هدرا " قدرى ، لا ينبغي ان تحيا ، هذه هي العدالة ."(٣)

لكنه يكتشف انه أعجز من ان يحقق العدل . فان قتل ابنه أصبح قاتلا ، تطارده العدالة ، وان أبقاه ، فانه يؤوى قاتلا في بيته .

وعلى فكرة العدل ، يبني نجيب محفوظ ، رواية "أولاد حارتنا" : العدل ، والمساواة ، والحق في حياة طيبه . وتزهق ارواح كثيرة في سبيل تحقيق هذه المثل ، وتنتهي الروايـة ، ولا ينتهي الصراع . فلكي يتحقق العدل والمساواة ، لا بد من المعرفة ، معرفة الاسرار التي توصل اليهما ، وهذا هو في الواقع ، ما يسعى الانسان للوصول اليه منذ وجد .

انه يريد عدلا مطلقا ، وفي بحثه عن العدل المطلق ، يبحث عن النظام الكامل للكون . ولكن بحثه ينبثق عن حاجة اجتماعية ، فالحاجة الاجتماعيه ، هي التي تدفع الى الحالة الميتافيزيقيه ، وهي التي تصور العدل العام ، مثلا أعلى تهون الشهادة في سبيله .

---

(١) أولاد حارتنا — ص ٩٦
(٢) هو آدم .
(٣) أولاد حارتنا — ص ١٠٥

وفي موقف آخر من رواية "أولاد حارتنا"، يسقط ميت ثان، بضربة لم يرد لها ان تكون قاضيه، فيضربه نبوت من جبل،[(١)] وهو الاعزل الشريف، يسقط فتوه ميتا. ان جبل قد انتصر لأحد الرجال المظلومين، اراد ان يحميه من جبروت الطغاة، وان يرفع الظلم عنه، فأصبح بضربة نبوت واحده، قاتلا " يا ويلي، هل انقلب قاتلا من اول ضربه ؟ ما وددت ان اكون قاتلا قط ".(٢)

انّ صناعة الموت، هي عمل الفتوة الذى قتل، وما كان بحسبانه، وهو خارج ليؤدب الخارجين على ارادة الناظر، انه سيلتقي صدفة بجبل، وكيل الناظر، وانه سيموت بضربة نبوت، من رجل لم يحمل النبوت، ولم يحترف صناعة الموت .

وأمّا جبل، فما مد يده الاّ لينتصر لحق عام، لم يقتل دفاعا عن نفسه، ولا لنيل مأرب، ولا للانتقام . قتل لأنه غضب للظلم، وأراد ان يحقق العدل، انّ مكاسبه المادية الاجتماعية وفيره - وهو وكيل الناظر - لكنه يعافها وهو يبحث عن كرامة قومه وحقهم في حياة جميلة .

وهنا ايضا، تتشابك المشكلة الاجتماعية، والمشكلة الميتافيزيقيه، فتصبحان مشكلة واحدة .

ويعزو نجيب محفوظ، هذا التلاحم، الى اهتمامه في رواية "أولاد حارتنا"، بالأفكار والمعاني، أكثر من اهتمامه بالناس والأشياء " اصبحت اليوم اهتم بما هو وراء الواقع، وباعثي على الكتابة افكار وانفعالات معينه، تتجه الى الواقع لتجعله وسيلة للتعبير عنها".(٣)

هو اذن، يبحث عن مشكلات الانسان الأساسيه، وليس عن مشكلة انسان معيّن، في مأزق معين، وفي مجتمع معين .

---

(١) جبل هو موسى (نبي اليهود)
(٢) أولاد حارتنا - ص ١٣٩
(٣) خراط، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٧٣، سنة ١٩٦٣ - ص ٢٧

وفي رواية " اللص والكلاب " ، يموت عامل بريء ، برصاصة مصوبة الى صدر غيره ، سكن بالصدفة في بيت ، كان يسكنه رجل له غريم ، يريد ان يثأر منه . ويقصد الغريم البيت ، وفي ظنه ان غريمه لا يزال فيه . فيكون الضحيه ، العامل شعبان حسين ، الذى لا غريم له ، فهو لم يسرق زوجة احد ، ولم يعتد على أموال احد ، ومع هذا قتل . " من انت يا شعبان ؟ انا لا اعرفك وانت لا تعرفني .. هل لك اطفال ؟ هل تصورت يوما ان يقتلك انسان لا تعرفه ولا يعرفك ؟ هل تصورت ان تقتل بلا سبب ؟ ان تقتل لأنّ نبويه سليمان تزوجت من عليش سدره ؟ وان تقتل خطأ ولا يقتل عليش ، أو نبويه ، أو رؤوف ، صوابا ؟ . انا القاتل لا افهم شيئا ، ولا الشيخ علي الجنيدي نفسه ، يستطيع ان يفهم . أردت ان احل جانبا من اللغز ، فكشفت عن لغز اغمض ." (١)

هذا اللغز الأغمض ، هو " لماذا " . لماذا ساقت الصدفة هذا الانسان البريء ، الى ذاك المكان ، ليلاقي حتفه ؟ وعلى يد رجل لا يعرفه ، ولم يتسبب في ايذائه ابدا .

وكان سعيد مهران ، القاتل ، لا يجد جوابا عن تساؤلاته الا في دنيا القبور . فهو يتأمل القبور ويصف " مدينة الصمت والحقيقة ، ملتقى النجاح والفشل ، والقاتل والقتيل ، مجمع اللصوص والشرطه ، حيث يرقدون جنبا الى جنب في سلام ، لأول مرة ولآخر مرة ." (٢)

التراث الديني يقول : " انّ الموت حق " . وما هو نجيب محفوظ ، ينبثق من هذا التراث . فالموت ، هو نهاية المطاف لكل كائن بشري ، وهو الحقيقة الأكيدة .

لكن الموت ، لا يحل المشكلة ، وسيظل الانسان دائما واقفا يتساءل ويأمل ، لقد امل سعيد مهران ، انه سيعيد الطمأنينة الى الأحياء والأموات ، لو هو قتل رؤوف علوان ، رمز الخيانة في نظره .

---

(١) اللص والكلاب – ص ٩٠
(٢) " " – ص ٩٧

وستكون الرصاصة ،التي تنطلق من مسدسه الى قلب رؤوف علوان ،احتجاجا داميا مناسبا ، لضياعه غير المعقول ،على الرغم من تأييد الملايين له "مأساتي الحقيقيه انني رغم تأييد الملايين، أجدني ملقى في وحدة مظلمة ،بلا نصير • ضياع غير معقول ،ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ، ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أي حال ،كي يطمئن الأحياء والأموات ،ولا يفقدون آخر أمل •" (١)

ومع هذا ،فحين صوّب سعيد مهران ،مسدسه ،الى قلب رؤوف علوان ،قتل بريئا كان يقف بالصدفة هناك ،البواب المسكين •

وأحسّ سعيد ،للحظة ،انه "كالمظاهرات الطبيعية الخارقة" يثير الخوف والاعجاب ، الا انه لا يقتل الا الأبرياء •

"أنا لم اقتل خادم رؤوف علوان ،كيف اقتل رجلا لا اعرفه ،ولا يعرفني ؟انّ خادم رؤوف علوان ،قتل ،لأنه بكل بساطة خادم رؤوف علوان • وأمس زارتني روحه ،فتواريت خجلا ،ولكنه قال لي ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب •" (٢)

وفي رأي غالي شكرى ، "انّ نجيب محفوظ ،لم يستهدف من رصاصات سعيد الطائشة ، أن يؤكد العبث والقدريه ،وما اليها من مرادفات المجهول ،بقدر ما اراد ان يؤكد ،ان صراع سعيد مهران ،لم يكن صراعا من اجل البقاء الذاتي • وانما هو صراع ،من أجل بقاء أكبر •" (٣)

ويستشهد على ذلك ،بما قاله سعيد مهران ،وهو يحلم انه يدافع عن نفسه "انّ من يقتلني انما يقتل الملايين ،انا الحلم والأمل وفدية الجبناء ،وانا المثل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه ، والقول بأنني مجنون ،ينبغي ان يشمل كافة العاطفيين • فادرسوا أسباب هذه الظاهرة الجنونيه ،واحكموا بما شئتم •" (٤)

---

(١) اللص والكلاب — ص ١٣٩
(٢) " " — ص ١٤٨
(٣) شكرى ،غالي — المنتمي — ص ٢٧٢
(٤) اللص والكلاب — ص ١٤٨ ، ١٤٩

الموت بحادث تافه :

في موقف عبثي ، هو أقرب ما يكون الى الهزل ، يموت رجل كبير وناجح ، حين زلت قدمه ، وهو يحاول تفادى بول غلام صغير .

ويصف نجيب محفوظ ، الرجل ، بأنه موظف كبير . وبأن حياته ، سلسلة من المعارك متوجه بالانتصار . في ذلك منعته وكرامته ، في الحكومة او النادى او القريه ، منذ نشأته الاولى وهو مناضل ، كأنه يعيش في حلبة ملاكمة .

وشعاره في الحياة " النضال هو روح الحياة وسرها . أما القيم المعسولة الخرعه ، فهي آفات الحياة ." (١)

حتى المرض ، له في مفهومه ، تفسير خاص " المرض — اذا لم يكن منه بد — فهو ظاهرة تطرأ على الجهاز البشرى عقب تعونه في السن . أما الطائش ، فلا يعرض الا لخلل في الكون ." (٢)

مواطن ، رجل ناجح ، وصحيح الجسم ، ويؤمن بالنضال ، وله عقيقة " أما القيم المعسولة الخرعه فهي آفات الحياة ."

ولأن نجيب محفوظ ، يؤمن ، بأن فوق قوة الانسان ، قوة اعظم ، هي هذه القوة اللا مرئيه ، واللا محسوسه ، الله او القدر ، فقد دبر له ميته ، تقطر سخرية : " عند أول منعطف قبل المقهى ، وعقب نزوله من الطوار مباشرة ، قاصدا بيت عشيقته ، وجد نفسه مدفوعا نحو غلام يبول . فتراجع بسرعة هاتفا " يا ولد يا كلب " . كان الغلام يبول في علانيه استعراضيه ، وشقاوة وشب بسروره بما يفعل ، وقد انطلق البول متلألئا تحت اشعة الشمس في هيئة قوس ، والغلام يدفعه بحركاته الذاتيه ، الى اقصى مدى يستطيعه . تراجع كريم بك في شبه فزع ، فزلت قدمه ، فهوى على ظهره

---

(١) بيت سيء السمعة — ص ٢٦٤
(٢) « « « — ص ٢٦٥

فارتطم مؤخر رأسه بحافة الطوار ، ذعر الغلام فولى هاربا . ووقف المارة القريبون ليشاهدوا الحدث الغريب ، وهم بين الرثاء والابتسام ، وهرع اليه بعض ذوي النجدة ليسعفوه . وارتفع من بينهم صوت هاتفا :

— يا لطف الله .. الرجل جثة هامدة .. (١)

وفي اقصوصة " المتهم " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يموت رجل وهو يغني . الرجل يركب دراجه ، يقطع بها طريق السويس ، ويستعين على قطعها ، بالامساك بمؤخرة سيارة كبيرة . ويصدف مرور ماعز في الطريق ، فتضطر السيارة للفرملة ، وتقضي بذلك على راكب الدراجة ، المتعلق بها .

وتنتهي حياته بالراحة ، لتبدأ متاعب انسان آخر ، لا دخل له به ، ولا علاقة له معه ، انسان ، صدف ان كان مارا اثناء وقوع الحادثة ، فاتهم بها . والذين اتهموه لا يعرفونه ، ولا ثأر لهم عنده . وكان يمكن ان يكون المتهم ، واحدا من عشرات الألوف الذين يعبرون الطريق . لماذا هو بالذات ؟ لماذا تصبح حياته رهنا بحياة القتيل ، وما هو هذا السر الغامض الذي جعل الفلاحين يتهمونه .. ؟

ويجيب نجيب محفوظ ، على تساؤلات الرجل ، مستنطقا أياه " لقد تم التعارف اليوم ، بيني وبين أشياء ، لم اعرفها قبلا الا بالسماع : المصادفه ، القدر ، الحظ ، النيه ، والعمل . كل شيء يجب ان يعاد التفكير فيه ، كل شيء ، كشيء وككل . يجب ان نبدأ من الألف ، لنفهم كل شيء ، ولنسيطر على كل شيء ". (٢)

فهو امام ظاهرة ، لم يقدر ان يمنطقها " ثمة قوة عمياء مجهولة تطحنه ، وكانما لا تدرى ". (٣)

---

(١) بيت سيء السمعة — ص ٢٦٧
(٢) خمارة القط الأسود — ص ٧٠ و ٧١
(٣) = = = — ص ٦٨

ب — المـوت القـدرى :

يقول احمد عباس صالح : " انّ الموت عند نجيب محفوظ ، هو بديل القدر الاغريقي • ومن هذا البعد ، يتخذ موقفه التراجيدي ، كل عناصره • فالموت يقف بالمرصاد ، امام كل الاحلام • وأمام الرغبة التي لا تيأس في تحقيق السعادة • والموت هو الذي يختار ، والاختيار يفصح عـن أرادة فيها شيء من القسوة ، ارادة تدبر وتحكم • وحين يحاول الانسان التدخل ، ان يلعـب دورا في قضية الموت ، حين يأتي اختيار الانسان للموت ، على اساس من القصاص ، تطيـش الرصاصات ، كما طاشت رصاصات سعيد مهران ، في اللص والكلاب • ويختار الموت ابعد الناس عن جدارتـه •

لكنّ نجيب محفوظ ، لا يقف موقفا مستسلما من الموت • يتمرد ، ويتحدى ، ويلوذ بالعلـم فترة ، ثم ينتقل بشكل مباشر الى المشكلـة الميتافيزيقيـة • " (١)

والواقع ، انّ هناك كثيرا من المواقف ، يعرب فيها نجيب محفوظ ، بلسان شخصياتـه ، عن تمرد — ولو كان سطحيـا — على الموت الذى هو قضـاء من الله لا يرد •

في رواية " بداية ونهايه " ، وموقف الاخوين حسـن وحسـنين ، من موت والدهما • فـي " السكّريه " ، وموقف عائشة من موت ابنتها • في " خان الخليلي " ، وهتاف ام رشد ، عقـب مـوت ابنها • في " السّراب " ، وغضبـة كامل رؤبه لاظ ، على أرحـم الراحميـن •

انّ عائلة كامل علي ، في رواية " بداية ونهاية " ، تمثل الطبقة الوسطى في المجتمع المصرى • عائلـة مسلمة ، مؤمنـة ، متعلقة بآداب الدين ، والقسم بالقبر عندها ، يعني منتهى الصدق •

---

(١) صالح ، احمد عباس — قراءة جديدة لنجيب محفوظ (مقدمه) — مجلة الكاتب — العدد ٥٧ ، سـنة ١٩٦٥ — ص ٨١

تقف هذه العائلة ،على لسان بعض أفرادها ،موقفا متشككا من العدالة الالهيه : حسن، يهتف في حيرة : " انت تقولين ان الله لا ينسى عباده ،وأنا عبد من عباده ،فلننظر كيف يذكرنا ؟ لماذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا ." (١)

وفي حوار بين حسين وحسنين ،تبدو بذور الشك واضحة :

حسنين - ان من يستسلم للأقدار ،يشجعها على التمادي في لغيانها ..
حسين - علم نثر عليها . ودعنا نهتف لتسقط الاقدار كما هتفنا ليسقط هور ..
حسنين - الم تفدنا ليسقط هور ؟!
حسين - هيهات ان تفيدنا الاخرى..
حسنين - من لنا الان ..؟
حسين - الله ..

وزاد الجواب من حنقه ،انه لا يشك في هذا ،ولكنه لا يقنع به .

الله للجميع حقا ،ولكن كم في الدنيا من جائع ومصاب . لم يتنكر يوما لعقيدته ، ولكنه يتلهف في خونه ،على سبيل محسوس للطمأنينة ،فقال :

حسنين - لقد شاء ان يأخذ والدنا ،ويتركنا بلا معين .
حسين - هو المعين ..
حسنين - ان هدوءك الكاذب ،لا يجوز علي .. انت مطمئن حقا ؟؟
حسين - المؤمن لا تخونه طمأنينته ..
حسنين - اني مؤمن وقلق معا ..
حسين - هذا من ضعف الايمان ..
حسنين - ليكن ،اني اعرف تلاميذ يجاهرون بالشك ..
حسين - أعلم هذا ..
حسنين - هم أذكياء ومطلعون ..
حسين - أتحب ان تفعل مثلهم . ؟

---

(١) بداية ونهاية - ص ٢٣

قـال في خـوف :
حسنين – كلا .. لسـت من هواة الأطـلاع ." (١)

مؤمن بفضل نشأته الدينيه ،وقلق بسبب وضعه الأجتماعي .ولا يقدر ان يتخذ موقفـا ، ولا ان يبت برأى لأنه ليس مطلعا ،لأنه لم يعط قدرا كافيـا من العلـم .

وأما عائشة ،التي تمثل النصف المستسلم من المجتمع المصرى ،النصف الذى لا يحلـم بالتمرد على كائـن بشرى ،فقد تمردت في لحظة ،على القضية المسلم بها في الموروث الديني ، وهتفت "ما هذا يا ربي ؟ ما هذا الذى تفعله ،لمـاذا ؟ لماذا ؟ اريد ان افهم ." (٢)

ومثلها ام رشدى ،السيدة التي لا تقلع فرضا ،والتي لا تجادل ولا تحاور في امر من امور الدنيا ،فكيف بأمور الدين . نسمعها امام الموت تخاطب ربها بتمرد العاجز "ما ضر دنياك لو تركت لي ابني ." (٣)

وأمـا كامل روءبه لاظ ،في "السراب" ،فقد كان اعنف في تمرده ،حين صاح بعد موت زوجته : "ألا يزال ارحم الراحميـن ! وداعـا فلن اعبده بعد اليوم ." (٤)

الا أن تمرده ،لم يطل . اذ سرعان ما انقلب الى رغبة عارمة في الصوفيه ،على أثر وفاة امه ،"لقد خلقت في الواقع متصوفا ،ولكن اضلتني نوازع الحياة ،وتصورت نفسي في اجر عجيب ، يستحم جسدى بماء عطر ،وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ،فلا مشهد ارنو اليه الا السماء ، ولا خاطر ينبثق في نفسي ،الا اللـه ." (٥)

والصوفيه ،كالعلم ،هاجس من هواجس نجيب محفوظ . وتعقيبا على كلام لنجيب محفوظ ، يقول فيه : "انني اطلب الحياة حياة انسانية ،علاقات الناس تقوم على الحب ،والتعاون ،حتى

---

(١) بدايـة ونهايـة – ص ٣١
(٢) السـكريـة – ص ١٨٨
(٣) خان الخليلـي – ص ٢٦١
(٤) السـراب – ص ٣٥٤
(٥) " – ص ٣٦٦

يستطيعوا ان يتجهوا الى الله .. أتطلع الى لون من ألوان الحياة تستطيع ان تطلق عليه "الصوفية الاشتراكية" حياة هي التطلع الى الله " . يقول ادوار خراط تعقيبا: "التصوف على سبيل الاستطراد ،من هموم نجيب محفوظ ،التي ما تفتأ تلازمه وتلح عليه ،وما تفتأ تظهر في عالمه ." (١)

هي محاولات من الفنان ،ليدرك كنه الحياة والموت ،ليكتشف سر الوجود ،ليسهم في تغيير الانسان الى الافضل . وحمل نجيب محفوظ ،الانسان المصرى ،بموروثه الديني العميق ، وأدخله دنيا العلم . لعله بالعلم ،يصل الى الحقيقة . وكان كمال عبدالجواد ،نموذجا لهذا الانسان ،فموقف كمال من الموت ،هو موقف المتأمل ،المحاول ان يفلسفه ،الجاهد ان يستنبط منه ،معنى للحياة .

وقد مرت في "الثلاثية" ، ثلاث حالات ،كان الأموات فيها احب الناس الى نفسه . هذا اذا استثنينا موت اخيه ،فهمي ،وكان كمال لا يزال صغيرا .

عقب موت زوج اخته عائشة ،وولديها ،وقف يقول : "هل ثمة حكمة رفيعة يمكن ان تبرر القتل بالجملة ..؟" الموت نوع من العبث ،الا ان الايمان بالله ،هو الذى جعل من الموت ، تنماء وحكمة ،يبعثان على الحيره . ان الموت يتبع قوانين النكته بدقة ،ولكن كيف لنا ان نضحك ، ونحن هدف النكته . ولعلك تستطيع ان تلاقيه بالابتسام ،اذا تصديت له دواما بالتأمل الصادق ، والفهم الصحيح ،والتجرد الأصيل . ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا . (٢)

ومن المسلم به ، ان "التأمل الصادق ،والفهم الصحيح ،والتجرد الأصيل ،يعني العلم .

---

(١) خراط ،ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٧٣ ،سنة ١٩٦٣ - ص ١٨
(٢) قصر الشوق - ص ٤٦٢

وكان هذا هو موقفه ،عند موت ابيه ،فقد اتخذ من احتضار ابيه ،زادا لتأمله ،ومادة لمعرفته • ومع احساسه بالخجل ،من نزوع نفسه الى تحليل الموقف ـ بدافع الايمان ـ الا انه لم يستطع ،وقد اعتراه شعور بالعجز المطلق ،واليأس المطلق ،والتفاهة المطلقة ،الا ان يصل الى نتيجة : " ان كنه هذه الساعة الأخيرة ،سيبقى سرا الى الابد • وان وصفه بالألم ، أو الفزع ،او الغيبوبة ،رجم بالغيب • ولكنه على كل حال ،لا ينبغي ان تطول ،انما اجل واخطر من ان تبتذل •• (١)

يريد كمال ،ان يتخذ من الموت ،منطلقا للتفكير في قضايا الحياة ،في اسرار الكون ، وفي معنى الوجود • لذلك نسمعه يقول وامه تحتضر :

— " كثيرون يرون ان من الحكمة ،ان نتخذ من الموت ،ذريعة للتفكير في الموت • والحق انه يجب ان نتخذ من الموت ،ذريعة للتفكير في الحياة • فالنظر الى الحياة ،كمأساة ،لا يخلو من رومانطيكيه طفليه ،والأجدر بك أن تنظر اليها في شجاعة ،كدراما ذات نهاية سعيدة ،هي الموت • ثم سائل نفسك ،ألام تضيع حياتك هباء ؟ ان الأم تموت ،وقد صنعت بناء كاملا ، فماذا صنعت انت ••؟" (٢)

وسواء لجأ الانسان الى الصوفيه ،او العلم ،في محاولته اليائسة ،لفهم سر الموت والحياة ،فان الموت والحياة ،يظلان في استمرار ابدى • بل لعل نجيب محفوظ ،يلجأ الى الموت ، كعملية انتقاميه ،من انسان ،يحسب نفسه وصل الى ذروة النجاح • وفي هذا ،يقول احمد عباس صالح ، " مشكلة الموت عند نجيب محفوظ ،مشكلة معقدة ،انها ليست عملية طبيعيه ، بل اشبه ما تكون بالانتقام • وهي في احسن صورها تبدو غير مفهومه ،وغير منطقيه • وفي قصصه القصيره ،يكشف الموت عن نفسه ،قدرا غاشما احيانا ،غير مفهوم احيانا اخرى ،وقصاصا عادلا ،بعد ان ألفه نجيب محفوظ ،فراح يستعمله استعمالات انسانيه • ولكنه حتى في هذا

---

(١) السكريه ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦
(٢) " ـ ص ٢٨٩ و ٢٩١

الاستعمال ، تضطرب يده وهو يؤكد سلطانه المطلق ." (١)

وفي قصة الختام ، من مجموعة " بيت سيء السمعة " ، يسوق نجيب محفوظ ، الموت ، كقصاص للرجل الذى اراد ان يكون مستقيما ، وان يكفر عن خطأ ارتكبه ، في مطلع حياته .

لقد قدمه لنا وهو في أوج نجاحه وسعادته ، غداة ترقيته الى وكيل وزارة ، واستعداد لتزويج ابنته الوحيدة ، من قاض شاب .

وتكون هذه الترقيه ، السبب الذى يدفع به الى الانتحار . اذ يكتشف موظف صغير ، اثناء مراجعة ملفه لاعداد البيان التمهيدى لتعيينه ، تزويرا في شهادة ميلاده ، ويساومه ، فأمّا ان يعلن عن ذلك ، فينفضح امره ، وامّا ان يسلك معه — أى الموظف — طريق التسوية .

انّ تسلل الموظف الصغير ، الى حجرته ، قد قوّض بنيانه بلطمة واحدة ، مما جعله يتطلع الى فضاء الغرفة ، منقبا في ذهول ، عن القوة المدمّرة الساخرة .

هذه القوة المدمرة الساخرة ، هي القدر ، الذى ظلّ يلاحقه ، رغم توبته خمسة وثلاثين عاما . ورغم عزمه على اصلاح خطائه ، بالاستقالة من الحكومة ، قبل عامين ، من موعد احالته على المعاش .

وفي النهاية ، يلجئه الكاتب ، الى الله " ومن غير الله ، يمكن ان ينتشلك من مأزقك الخانق ؟ ودعا ربه طويلا حتى اغرورقت عيناه ." (٢)

والواقع ، أن خطأ من هذا المستوى ، وسيره من هذا النوع ، لا يدفعان الى الانتحار . وربما اعتبر نجيب محفوظ ، انّ الرجل ، قد اكمل رسالته بالوصول الى غاية سعادته ، فاختار له النهاية الطبيعية ، " الموت " .

---

(١) صالح ، احمد عباس — قراءة جديدة لنجيب محفوظ ، الموقف التراجيدى — مجلة الكاتب — عدد ٥٧ ، سنة ١٩٦٥ — ص ٨١

(٢) بيت سيء السمعة — ص ١٤٨

وفي اقصوصة "الهارب من الاعدام" ، من المجموعة نفسها ، يبرز ايمان نجيب محفوظ ، بالموت ، كقدر لا يرد . تقول الأقصوصة ، ان انسانا هرب من حبل المشنقة حين ذهبت أوراقه الى المفتي ، ولجأ الى صديق له ، وتخفى عنده ، مدة عام ونصف العام ، واندلعت في نهايتها الحرب ، فأمل الصديق خيرا في الحرب :

" – قلبي يحدثني يا سلامه ، بأن الشغل سيضحك عاليا .. ليتني استطيع ان اعتمد عليك ..

– صديقك .. واسير شهامتك .. ولكن لا يمكن ان ابرح الخرابة ..

– هل يعرفك أحد في المدينة خلف هذه اللحية ؟؟

– يعرفون الجن ..

– وهل ينقضي عمرك في الخرابة ؟؟

– هي خير من حبل المشنقة يا أبا محمود ..

– سأهربك الى فلسطين ، وستعمل هناك لحسابي .. ما رأيك ؟؟

– الرأى رأيك ." (١)

كان الهارب ، مستعدا ان يعمل أى شيء ، شرط ان تسلم حياته ..

وبالفعل ، تنجح تجارة ابي محمود ، وتزدهر ، لدرجة انه يعتبر الحرب نعمة .

" – يا ولد العم ، ليست الحرب كما يقولون . الحرب نعمة كبرى .. والانكليز رجال . ولم تعد الزمارة تخيف احدا ." (٢)

وفي الغارة ، يقضى على كليهما . الهارب من الموت ، والمتاجر مع الموت .

والموت عند نجيب محفوظ هو القدر .

---

(١) بيت سيء السمعة – ص ١٨٤
(٢) " " " – ص ١٩٠ و ١٩١

في أقصوصة " البارمان " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يأتي الموت ليقضي على اسطورة الرجل ، الذي يجد لكل شيء في الحياة تفسيرا ، يدخل السعادة الى القلوب . فهو لا يعترف بالخوف ، ولا بالفقر ، ولا بالعجز والشيخوخة ، ولا بالخيبة في الحب . فلكل هذه السلبيات ، وجوه أيجابيه ، يراها هو . حتى الموت ، له معنى خاص عند البارمان :

– " الموت لا يجيء الا مرة واحدة ، واذا جاء اعقبته سعادة كبرى ..
– ها انت تتحدث عمّا وراء الموت ..
– من أين أتيت ؟ ألا يشبه الظلام الذي أتيت منه الظلام الذي ستذهب اليه . وقد أمكن ان يخرج من الظلام الأول حياة ، فما يمنع من ان تستمر الحياة في الظلام الثاني ؟ " (١)

وظل الرجل السعيد ، القوى ، الذي لا يرى من الحياة الا وجهها المشرق ، واقفا وراء البار كالتمثال . ولم يصدّق الناس أعينهم ، وهم يرونه يتهاوى .

" وهل كان يمكن ان يموت رجل في مثل قوته الا بضربة قاضية ؟ " (٢)

بهذا التساؤل ، ينهي نجيب محفوظ ، الأقصوصة ، مؤكدا ايمانه بالجبريه . " كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ".

وفي رواية " ثرثرة فوق النيل " ، يسوق القدر رجلا في الخمسين ، شبه عار ، ليقع الطريق في اللحظة التي كانت السيارة منطلقة بأقصى سرعتها ، تحمل جماعة العابثين ، الذين يعتبرون أنفسهم عبثيين ، لا يعنيهم شيء ، وان الأخلاق التي تديهم اخلاق ميتة ، ممسوحاة من عصر ميت ، وانهم روّاد اخلاق جديدة ، صادقة ، لم ينتظمها التشريع بعد .

---

(١) خمارة القط الأسود — ص ٥٦
(٢) " " — ص ٥٨

وتصدمه السيارة ،وفجأة تدوى صرخة مروعه ،ويفتح السائق عينيه مرتعدا ،فيرى شبحا أسود يطير في الهواء :

— " شخص ما تحلم
— قتل عشر مرات ".(١)

ويقرر الجماعة ،ان يكملوا سيرهم دون ان يساعدوا القتيل . وينفذون هذا القرار. لقد نجوا من المسئولية .

ويغمض أنيس ،عينيه . ولكنه يرى الشبح الأسود وهو يطير في الهواء ، " ترى أما زال يتألم ؟ ألم يعرف لماذا وكيف قتل ؟ أو لماذا وجد ؟ ام انتمى الى الابد ؟ وهل تمضي الحياة كأن " شيئا لم يكن ؟ " (٢)

وهذا هو السر ، الذى يؤرق الفنان . هو مؤمن بقضاء القدر ،وبأن " الموت ،نهاية كل انسان . ولكن قلقه ،نابع من عملية اختيار القدر ،لماذا هذا الانسان دون ذاك ؟ وهل يدرى الانسان المختار ،انه اختير ،ولأى سبب !! وابعد من ذلك ،ان الفنان ،يريد للانسان، ان يعرف لماذا وجد .

ولقد انطق نجيب محفوظ ،انيس ،بهذه الكلمات — وهو نموذج المثقف في العوامه — ليجعلها اسئلة منبثقة عن العلم . يريد للعلم ،ان يحل المشكلة الميتافيزيقية .وهذا هو محور رواية " الشحاذ " ، ورواية " أولاد حارتنا " . وعن اتجاه نجيب محفوظ ،الى العلم ،يقول غالي شكرى : " لقد احس نجيب محفوظ ،منذ الوهلة الأولى ،ان الدين ،يشكل ركيزة اساسية في بناء القيم ،التي نعيش بين جدرانه في الشرق . وعن طريق الدين ،أراد ان يدخل عالمنا الروحي ،حتى يستطيع — وهو داخل البناء — ان يستبدل هذه الركيزة الكبرى في حياتنا ، بركيزة اخرى عرفت طريقها الى العالم المتحضر ،منذ زمن بعيد . تلك الركيزة ، هي العلم ".(٣)

---

(١) ثرثرة فوق النيل — ص ١٦٠
(٢) " " " — ص ١٦٣
(٣) شكرى ،غالي — المنتمي — ص ٢٣٠

ج ـ الاستشهاد من اجل العدالة والحرية :

سئل نجيب محفوظ ،كيف تفسر القلق ؟ قال :

- "ان جميع فلسفات الانسان ،منذ العصور القديمة حتى هذا العصر ، رغم تفاوتها في القيمة ،ورغم صعورها وهبوطها ،لم تعط رسالة حقيقية لهذا الجيل القلق .

وحتى الآن ينقسم هذا العالم الى قسمين : قسم يعطي الانسان الحرية ،ويتركه في غابه . وقسم يعطيه العداله ،ويسلبه الحرية .وفي الحالتين يدفع الانسان الثمن غاليا . اظن لو ان العدالة ،اجتمعت مع الحرية ،في نظام واحد ، تكون المنقذ . وما دام الانسان يفتقد احدى الحالتين ،فلن يرتاح له بال ."(١)

ويبدو نجيب محفوظ ،منسجما مع هذا الرأى ،في أعماله الروائيه والقصصيه . فأبطاله في بحث دائم عن هذين المطلبين ،ولاجلهما يَقتلون ويُقتلون ،وما وصل احد منهم الى العثور عليهما ،او تحقيقهما . وتجسد الروايات الثلاث "الطريق " ، و"اللص والكلاب"، و "أولاد حارتنا " ،هذا البحث الدؤوب ،عن الحرية ،والعدالة .

فصابر الرحيمي ،في رواية "الطريق " ،أضاع عمره ،وارتكب جريمتي قتل ،وحكم عليه بالاعدام ،وهو يبحث عن أبيه ،ليمنحه الكرامة والحرية والسلام . كانت المشكلة بالنسبة له، تعني النجاة بالمعنى الاجتماعي ،والمعنى الفكرى معا . فسواء يبحث عن المطلق ،يبحث عن حل لمشكلته الاجتماعية ،او سواء يبحث عن حل للمشكلة الاجتماعية ،يلتقي بالمشكلة الميتافيزيقيه.

---

(١) نجيب محفوظ ـ الادب ،الحرية ،الثورة ـ مجلة مواقف ـ العدد ١ ، سنة ١٩٦٨ ـ ص ٨٤

ومشكلته الاجتماعية ، انه يريد كباقي الناس، ان يكون له أب . فهو رجل بلا مـــال ، ولا أهل ، ولا عمل ، " ولا قيمة لأيّ عمل يجيء عن غير طريق أبيه "(١)، هذا الغائب ، الذى يمنح الحرية والكرامة والسلام . هو اذن، يبحث عن مطلق .

والبحث عن المطلق ، كما يقول احمد عباس صالح ، " هو البحث عن النظام الكامل للكون ، بفرض فهم القوانين التي تسير عليها الحياة الاجتماعية . فان هذا الفهم ، سيخلق حالة التوازن ، تلك الحالة التي ينشدها نجيب محفوظ ، بجماع نفسه . فالقلق الكامن في الحياة الاجتماعية ، والذى يغذيه النظام الطبقي ، والنزوع البشرى الى السلطة ، ويحيل اليه الفكر البرجوازى ، باعتباره حقيقة ثابتة أزلية ، هو المحرك الأساسي الى المشكلة الميتافيزيقية ".(٢)

فسعيد مهران ، في " اللص والكلاب " ، كان ينشد العدل ، وكان ينشد الحرية . فنصّب نفسه قاضيا ، يحكم بالموت على من يعتبرهم رمز الخيانة والعبث . ولما أطلت عليش ، من مخالب التأديب ، هتف سعيد : " نجا بخيانته ليزيد الخونة الآمنين واحدا ، أمّا انت يا رؤوف ، فالأمل الباقي في الا تضيع حياتي عبثا ، ولو كان الحكم بيننا غير الشرطة ، لضمنت تأديبك امام الناس جميعا . الناس معي ، عدا اللصوص الحقيقيين ، وذلك ما يعزيني عن الضياع الأبدى . انا روحك التي ضحيت بها ، ولكن ينقصني التنظيم ، على حد تعبيرك . ومأساتي الحقيقية ، انني رغم تأييد الملايين ، احدني ملقى في وحدة مظلمة ، بلا نصير . ضياع غير معقول ، ولن تزيل رصاصة منه عدم معقوليته . ولكننا ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أى حال ، كي يطمئن الأحياء والأموات ، ولا يفقدون آخر أمل ".(٣)

---

(١) الطريـــق - ص ٨١
(٢) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب ، العدد ٥٩ - سنة ١٩٦٦ - ص ٧٣
(٣) اللص والكلاب - ص ١٣٦ - ١٣٧

هو في الواقع ، ينشد لمأنينة الأموات والأحياء ، الى العدالة . ورؤوف علوان ، هو رمز العبث ، "فالرصاصة التي تقتله ، تقتل في الوقت نفسه ، العبث . والدنيا بلا اخلاق ، كون بلا جاذبية . ولست الممع في اكثر من ان اموت موتا له معنى ." (١)

ولأن سعيد ، يحس أن الملايين عاجزون ، فهم ليسوا احرارا ، لأن "المسدس ربهم الأعلى" ، فانه لا يأمل منهم النجاة ، رغم انهم يعطفون عليه . لكن عطفهم ، عطف صامت ، عاجز ، كأماني الموتى .

هو يمثل الحلم ، في الحرية والعدالة " انا الحلم والأمل وفدية الجبناء . وانا المثل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه . وان من يقتلني ، يقتل الملايين ." (٢)

الملايين ، الذين ينشدون العدالة الكونيه ، والحرية المطلقة ..

وفي رواية " أولاد حارتنا " ، يموت رفاعه (٣) ، شهيد ايمانه ، بأن السعادة من حق الجميع ، وانه يجب ان يخيم الحب والسلام ، على جميع الناس . ولكن " كيف للحب والسلام ، ان يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات ." (٤)

والفقر ، يعني اللا عدالة . وأما نبابيت الفتوات ، فتعني اللا حرية .

ولم يسلك رفاعه ، سبيل القوة ، لتطهير الحارة . فقد كان يؤمن بأن الشر ، يهزم بالطيب الجميل . وانبثق ايمانه عن واقع حارته ، التي لا يعوزها الجبروت ، ورغم ذلك تعيش في ذل ، وفقر ، وخوف ، " كل ساعة من نهار أو ليل ، ترى أنا سا يضربون ويجرحون ويقتلون ، حتى النساء ، ينشبن الأظافر حتى تسيل الدماء ، ولكن اين العدل ؟ الحق أن حارتنا في حاجة الى الرحمة ." (٥)

---

(١) اللص والكلاب – ص ١٤٢
(٢) " " – ص ١٤٨
(٣) رفاعة هو السيد المسيح
(٤) أولاد حارتنا – ص ٢٣٠
(٥) " " – ص ٢٤٥

والرحمة ، تبدأ من قلب الانسان . وهكذا ركز رفاعه ، اهتمامه بالنفوس ، وليس بالوقف . فالسعادة شيء غير الوقف ، وغير الخمر ، وغير الحشيش . السعادة ، هي ان تطرد العفريت من نفسك بالمحبة ، فاذا تخلص الانسان من عفريته ، تطهر من الحقد ، والطمع ، والكراهية ، وسائر الشرور .

والواقع ان موقف رفاعه ، هو أكثر المواقف ميتافيزيقيه . فهو ينشد المطلق ، دون اللجوء الى الأساليب الدنيويه . فلا قتل ، ولا سرقه ، ولا عربدة ، ولا خداع . كان يريد ان يبرهن ، ان " السعادة ليست في الجاه والقوة ، وان غاية الانسان من وجوده على الأرض هي شفاء الآخرين ، وليس قتلهم " ولخير للانسان ان يُقتل من يَقتل ."(١) . وان المسالمة لا تعني الضعف . " فمصارعة العفاريت ، أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء ، او منازلة الفتوات ." (٢)

كان رفاعه ، يحارب جانب الشر في الانسان ، وهي معركة تتطلب شجاعة اسمى ، وقوة أشد ، لانها معركة مع اللا محسوس ، واللا مرئي . فليس الشر انسانا ، لتقتله وتتخلص منه ، واذا لم يستطع الانسان التغلب عليه ، فهو لا محالة مهلكه . ولكن دعوة رفاعه ، في عالم ملئ بالمظالم والكبت ، لم تنجه من قدره ، حيث يدفع الى الموت ، بأيدي الحاقدين ، الذين أحاطوا به " فسار مستسلما للمقادير .. وغشيه الظلام ، والحيرة ، والخطر ، الذي يتهدده . فلم يكد يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان .. وران عليه حزن شامل عميق ، فغطى حتى على مخاوفه ، وخيّل اليه ان ذلك الظلام ، سيمسي صفة الدنيا الملازمة ." (٣)

---

(١) أولاد حارتنا — ص ٢٨٩
(٢) " " — ص ٢٩٠
(٣) " " — ص ٢٩٤

ودفع رفاعه، حياته، ثمنا للحرية والعدالة، وهو ينادى من اعماقه: "يا جبلاوى." "

ومن بعد رفاعه، دفع الكثيرون حياتهم ثمنا. قام قاسم، يطالب بالحرية والعدالة. فالجبلاوى، أخبره، ان "الوقف للجميع على قدم المساواة، وان الفتونه شر. وهو يريد ان يمحق الفقر، والقذارة، والتسول، والطغيان. ولا مطلب له من الناظر، الا العدل.

لكن قاسم، يوقن بعد ان يقتل أحد رجاله، أن تحقيق الحرية، والعدالة، لا تكون الا بالقوة " لن نطهر حارتنا من الفتونه الا بالقوة، ولن نحقق شروط الوقف الا بالقوة، ولن يسود العدل والرحمة والسلام الا بالقوة، وستكون قوتنا أول قوة عادلة، غير باغية."(١)

ويتصارع المطالبون بالعدالة والحرية، مع مغتصبيها. الفريق الأول، يريد هـا للجميع "نحن لا نفرق بين حي وحي، فالحارة حارتنا، والوقف للجميع. بذلك تتحقق شروط الوقف، نحن نطلب العدل."(٢) والفريق الثاني يعتبر العدل، كلمة السر التي يستعملها الفريق الأول، اذا اعتزم النهب والسرقة. اذ انه لا يعتبره اصلا ذا حق في وقف الجد " ليس فيكم من يعرف أباه، ولكنكم بكل وقاحة تقولون جدنا. يا لصوص، يا جرابيع، يا سفلة."(٣)

ويتغلب الفريق الأول في النهاية، بعد معارك داميه، سقط فيها شهداء كثيرون. ويتسلم قاسم الوقف، ويعلن: " هذا بيت الجبلاوى جدنا جميعا، لا تمييز في الانتساب اليه بين حي وحي، او فرد وفرد، او رجل وامرأة. ذهب الناظر الى غير رحمة، واختفى الفتوات. لن تؤدوا أتاوة لجبار، او تخضعوا لعربيد متوحش. فنمضي حياتكم في سلام، ورحمة، ومحبة. وبيدكم أنتم، الا يعود الحال كما كان. راقبوا ناظركم، فاذا خان اعزلوه،

---

(١) أولاد حارتنا - ص ٣٨٨
(٢) " " - ص ٣٧٨
(٣) " " - ص ٣٧٩

واذا نزع احدكم الى القوة أضربوه ، واذا ادّعى فرد أو حي سيادة أدّبوه ، بهذا وحده تضمنون الا ينقلب الحال الى ما كان ، وربنا معكم ." (١)

لكنّ الوصول الى العدل المطلق ، والحرية المطلقة ، في عالم يعيش فيه الانسان ، معناه العالم الكامل . ولما لم يتحقق هذا العالم في أيّ عصر من العصور رغم تطوره ، ولما كان نجيب محفوظ ، يؤمن بأرادة الحياة في التطور ، وبالثورة الأبديه ، فانه سيظل يبحث عنهما عن طريق التصوف حينا ، وعن طريق العلم حينا آخر . وسيدفع أناس كثيرون ، حياتهم ، ثمنا لهذه المعرفة .

وسيظل كفنان ، يبحث عن الحقيقة المطلقة ، لأنه يعتقد "أنّ الفن زعم لنفسه أحيانا ، البحث عن الأسرار العليا في الكون ." (٢)

---

(١) أولاد حارتنا - ص ٤٤٢
(٢) نجيب محفوظ - ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية - مجلة الكاتب - عدد ٦ ، سنة ١٩٦٦ - ص ٩٢

د - الموت في سبيل المعرفة :

يقول نجيب محفوظ : " أنا اعتقد انه لم يوجد زمن ،تسلطن فيه العلم على عرشه ، كزماننا هذا . فالعلم في نظري خير خالص ،ولا يعلق به الشر الا من نوايا الانسان . وانما لا أغفل عن هجوم بعض الفلاسفة والأدباء على العلم ،لكن الهجوم يجب ان ينصب على السلوك الاجتماعي ،أو السياسي ،أو الفردي للانسان ،لا على العلم نفسه .

وأنا اعتقد ان الفن ،زعم لنفسه أحيانا ،البحث عن الأسرار العليا في الكون . نجد هذا في كثير من الشعر الرومانسي ،والرمزي ،والأدب الفلسفي ،قديما وحديثا ." (١)

وانبثاقا من هذا الايمان بالعلم والفن ،أطلق عرفة ،(٢) في "أولاد حارتنا" ، ليبحث عن سر الوجود ،عن طريق العلم . وأطلق عمر الحمزاوي ،في "الشحاذ" ،ليبحث عن هذا السر ،عن طريق الفن .

وان كان عرفه ،قد دفع حياته المادية ثمنا لهذا البحث ،فان الحمزاوي ،قد دفع حياته المعنوية . هو لم يمت جسدا ،ولكنه مات ارادة وعملا . ربما لأن الحمزاوي ،لم يصل به التشوف الى حد الجريمة ،في حين اقترف عرفة الجريمة ،رغم ان شعاره الذي رفعه يوم جاء الحارة : " انا ساحر في كل ما فيه فائدة للناس ،أما القتل فله أناس آخرون ." (٣)

عرفه الساحر ،الذي يستخرج مادة مفيدة من مواد قذرة ،والذي يشعر بلذة حين يأتمر الشفاء بأمره ، " ظل يتشوف للاتصال بالقوى المجهولة ،وامتلاكها لو استطاع ." (٤) هذا السحر ،هو العلم . وهو شيء عجيب حقا ،لا حد لقوته ،ولا يدري احد اين يقف .

---

(١) نجيب محفوظ - ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية - مجلة الكاتب - العدد ٦٠ ، سنة ١٩٦٦ - ص ٩٢

(٢) عرفة هو العلم .

(٣) أولاد حارتنا - ص ٤٥٧

(٤) " " - ص ٤٦١

وقد تبدو النبابيت نفسها ، لمن يملكه ، لعب أطفال . لذلك فان " عرفه ، يدعو اصدقاءه ليتعلموا هذا السحر ، فالحارة يحكمها الفتوات ، رغم ما يروون عن عهود جبل ، ورفاعه ، وقاسم . لقد اصبح هؤلاء ذكريات " ونحن في حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب ." [1]

والقوة ، هي هذه الزجاجة التي يصنعها عرفه ، مع مساعده حنش ، في المنور المظلم . زجاجة معبأة ، ومحكمة الاغلاق ، ولا تحرب الا في الخلاء ، وفيها القضاء على الفتوات ، هؤلاء الذين لم يقدر عليهم أحد .

فاذا كان الجبلاوى نفسه ، وهو الجد الأكبر وصاحب الوقف ، ملتزما الصمت والاختفاء ، ووصاياه مهمله ، وأمواله مضيعة ، فمن يقتص منهم ؟ [2]

وقرر عرفه ، بسحره ، ان يكون هو المقتص . فليقتص العلم ، ولينشر العدالة المطلقة : فأما أمن للجميع ، او لا امن لأحد . [3] وأكثر ، فان " سحر عرفه ، بعد ان يتمكن من القضاء على الفتوات ، سيشيد المباني ، ويوفر الرزق ، لكافة اولاد الحارة .

ولكن عرفه ، يريد ان ينتشر سحره ، ولن ينتشر " الا " اذا استغنى اكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر .[4] لذلك يقرران يذهب الى بيت الجبلاوى ، ليحصل من هناك على كتاب السحر الأول .. سرقوة الجبلاوى ، الذى ضن به حتى على ابنه .

ورغم توسلات زوجته ، يصر عرفه ، على الذهاب الى بيت الجبلاوى " لم يعد لي من هم في الدنيا الا " البيت الكبير ، وليس غريبا على مجهول الأب ، ان يتطلع بكل قوته الى جده . وحجرتي الخلفيه ، علمتني الا " أومن بشيء الا " اذا رأيته بعيني ، وجربته بيدى . ولا محيد عن الوصول الى داخل البيت الكبير ، وقد اجد القوة التي انشدها ، وقد لا اجد شيئا على الاطلاق .

---

(١) أولاد حارتنا — ص ٤٦٨
(٢) = = — ص ٤٧٥
(٣) = = — ص ٤٨٢
(٤) = = — ص ٤٨٤

ولكنني سأبلغ براهـ على أى حال ، خير من الحيرة التي أكابدها . ولست أول من اختار المتاعب في حارتنا ، كان بوسع جبل ، ان يبقى في وظيفته عند الناظر ، وكان بوسع رفاعه ، ان يصير نجار الحارة الأول ، وكان في وسع قاسم ، ان يهنأ بقمر وأملاكها ، وان يعيش عيشة الأعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر ." (١)

والطريق الآخر ، هو البحث عن المطلق . هو الانعتاق من الذات ، والاتحاد بالكل ، في محاولة لاكتشاف أسرار الكون ، وتحقيق الحرية ، والعدالة ، والسلام ، للمجتمع البشرى .

وعرفه نفسه ، لم يقصد بيت الجبلاوى ، ويغامر بحياته ، الا ليحصل على سر قوته . لكنه بدلا من ان يحصل على السر ، أصبح قاتلا . "فعندما رأى العجوز يرقد بين الغيبوبة ، وبين النوم واليقظة ، دفعته حركة غير ارادية ، ولا شعوريه ، الى الانقضاض عليه ، وخنقه . ومرت الثواني وهو في جحيم من العذاب الصامت ، وشعر بقواه تخور ، وبأن الزمن بات اثقل من الذنوب ، وناداه الهرب كقوة لا قبل له بها ، جاء وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدرى مجرما ." (٢)

والواقع ، ان دافع القتل عند عرفه ، ليس مبررا ، ولا هو ممهد له ، فكريا ونفسيا . الا اذا اعتبرنا ان الجبلاوى ، لالتزامه الصمت والاختفاء ، وبالتالي السلبيه ، لم يعد قادرا ان يحقق العدالة ، والحرية ، والكرامة لأحفاده ، فلا لزوم لوجوده اذا . غيران مثل هذا الغرض ، لم يرد في اقوال وتصرفات عرفه ، الذى "قتل رجلا لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سببا ." (٣)

ويرى احمد عباس صالح "ان عرفه قتل الجبلاوى - ولم يكن على عداء معه - لانه كان يعتبره خرافة سلبيه ، تستعين بها السلطة لتسيم الناس كل انواع المظالم . اذن فقتل الجبلاوى ، كان لهدم الخرافه ، وابطال استعمالها ." (٤)

---

(١) أولاد حارتنا - ص ٤٨٧
(٢) " " - ص ٤٩٣ و ٤٩٤
(٣) " " - ص ٤٩٤
(٤) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب - عدد ٦١ ، سنة ١٩٦٦ - ص ١٠٦

وقد يصح هذا التفسير ، بالنظر لما ازمع عرفه ، القيام به بعد موت الجبلاوى . وتقول الحكاية ، — انّ عرفه قد قتل خادم الجبلاوى ، وانّ الجبلاوى لم يستطع تحمل الصدمة فمات تأثرا — انّ عرفه ، وقد تجرع الألم ، يفكر في معجزة : "ان تعود الحياة الى الجبلاوى .. انّ كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من احفاده الى العمل حتى الموت ، موتة الجبلاوى من كلماته ، انه يوجب على الابن الطيب ان يفعل كل شيء . ان يحل محله ، ان يكونه ."(١)

يعني ان يحل العلم ، محل الخرافه . لكن العلم ، لم يقدر ان يوصله لأن يكون الجبلاوى ، لأنّ الناظر اشترى علمه ، بالحياة المرفهه ، التي منحه اياها . وانّ علمه ، استطاع ان يحيل برودة الشيخوخة حرارة ، ولكنه لم يستطع ان يدفع الموت ..

ويوما سأله الناظر :

"— لماذا نموت يا عرفه ؟

— كلنا اموات وابناء اموات ، ليطل عمرك يا سيدى ..

— طال او قصر ، فالنهايه هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان ..

— لا تدع الأفكار تعكر صفوك ..

— انها لا تفارقني ، الموت .. الموت .. دائما الموت .. يجيء في اية لحظة ، ولاتفه الأسباب ، أو بلا سبب على الاطلاق ، اين الجبلاوى ؟ اين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب ؟ هذا قضاء ما كان ينبغي ان يكون ..

— المهم ان تكون الحياة كما ينبغي ..

— الحياة كما ينبغي واحسن ، لا ينقصها شيء ، حتى الشباب تعيده الأقراص ، ولكن ما جدوى ذلك كله ، والموت يتبعنا كالظل ؟ كيف انساه وهو يذكرني بنفسه كل ساعه .

— لولا حسد المحرومين من حولنا ، لتغير مذاق الحياة في افواهنا ..

— قول بالعجائز أجدر ! هبنا استطعنا ان نرفع حياة اهل حارتنا الى مستوى حياتنا ، فهل يقلع الموت عن اصطيادنا ؟

---

(١) أولاد حارتنا — ص ٥٠٣

- الموت يكثر حيث يكثر الفقر ، والتعاسة ، وسوء الحال ..
- وحين لا يوجد منها شيء يا احمق ؟
- نعم ، لانه معد مثل بعض الامراض ..
- هذا اغرب رأى تدافع به عن عجزك ..
- نحن لا ندرى عنه شيئا ، فلعله ان يكون كذلك ، واذا حسنت احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة ، وشعر كل سعيد ، بضرورة مكافحته حرصا على الحياة المتاحة .
- ولن يجدى ذلك فتيلا ..
- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هنالك يهدد الموت الموت . وبذلك نقتل الموت ." (١)

لكن عرفه ، الذى اراد ان يكون الجبلاوى ، وان يقتل الموت ، مات كأى انسان مجرم ، مقهور . مات بأيدى رجال الناظر ، وهو يهم بالهرب بكراسته السحريه ، بعد ان ابلغته خادمة الجبلاوى ، انّ الجبلاوى ، مات ، وهو راض عنه .

وحشر عرفه وزوجه ، في جوالين ، حملهما رجال الناظر الى الخلاء ، للفتك بهما .
" يا لهذه الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة بأفظع الالام ، حتى السحر ، لا يستطيع ان يجد لهذا المأزق الخانق مخرجا . لم يعد له من امل في الراحة الا بالموت ، فليس ثمة الا الظلام ، وليس وراء الظلام الا الموت . وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر ، فخسر كل شيء ، وجاء الموت . الموت الذى يقتل الحياة بالخوف ، حتى قبل ان يجيء . لو رد الى الحياة لصاح بكل رجل .. لا تخف .. الخوف لا يمنع من الموت .. ولكنه يمنع من الحياة .. ولستم يا اهل حارتنا احياء ، ولن تتاح لكم الحياة ، ما دمتم تخافون الموت ." (٢)

---

(١) أولاد حارتنا - ص ٥٣٣ - ٥٣٥
(٢) " " - ص ٥٤٦

وفي هذه الصيحة ، دعوة الى المقاومة ، الى الثورة الأبديه ، التي نادى بها نجيب محفوظ ، على لسان احمد شوكت ، في "الثلاثية" ، "الواجب الانساني العام ، هو الثورة الأبدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ، ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى ."(١)

وعلى ذلك ، تنتهي رواية "أولاد حارتنا" ، نهاية مؤملة بحياة أفضل . اذ ان شبابا كثيرين انضموا لعنتر ، الذى هرب بكراسة الأسرار ، ليتعلموا السحر منه ، استعدادا ليوم الخلاص الموعود . لذلك " تحمل الناس البغي في جلد ، ولاذوا بالصبر ، واستمسكوا بالأمل . وكانوا كلما اضر بهم العسف قالوا : لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار . ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ، ومشرق النور والعجائب ." (٢)

لقد حلم نجيب محفوظ ، بمدينة فاضلة يحققها العلم . لكن العلم ، كما يقول احمد عباس صالح ، " لم يحل المشكلة ، وما زال على الفكر ان يجد صيغة مقبولة تتفق مع مفاهيم العلميه ، ومع الظروف الحضاريه ، التي تعيشها المجتمعات الانسانية . ومن هنا ، كان تطور المشكلة الميتافيزيقيه وحلولها المختلفة ، اما انكارا ، واما اثباتا ، واما تخليا . ولم تعد المشكلة عملية عقليه ، بل حاجة اجتماعية ، لأن البحث عن العدل الاجتماعي ، صار يلتقي بالبحث عن المشكلة الاجتماعية ، بل ان هذه المشكلة الاخيرة ، هي التي تدفع الى المشكلة الاولى . واختلاط المشكلتين ، هو ازمة المجتمع البشرى في هذا العصر .

وبحث نجيب محفوظ في المشكلة الميتافيزيقية ، مفروض عليه فرضا ، بحكم الظروف الاجتماعية والحضاريه التي يجتازها العصر ." (٣)

---

(١) السكريه — ص ٣٩٢
(٢) أولاد حارتنا — ص ٥٥٢
(٣) صالح ، احمد عباس — قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) — مجلة الكاتب ، العدد ٥٩ ، سنة ١٩٦٦ — ص ٧٤

وأقصوصة " تحت المظلة " ،التي كتبها نجيب محفوظ ، بعد عشر سنوات من رواية "أولاد حارتنا " ، أتت تثبت ان العلم لم يتوصل بعد لحل المشكلة .ففي هذه الاقصوصة تتلاشى كل القيم والمفاهيم الانسانيه ،عبر احداث لا معقوله ،تحمل امام اناس ينتظرون الباص ،تحت المظلة الواقية من المطر . وهذه هي الاحداث .

- رجل وامرأة ،يمارسان الحب فوق جثة رجل ،قتل امامهم في حادث تصادم سيارتين .
- قوافل من البدو والخواجات ،تؤم المكان ،وتتصرف تصرفات طبيعية ،غير مبالية بالرقص او الحب او الموت او المطر .
- عمال يشيدون قبرا ، ويضعون فيه جثث موتى الاصطدام ،ومعها العاشقين اللذين لم يكفا عن ممارسة الحب ، فهما لا ينفصلان .
- رجل يلبس ثوب القضاء ،يقف فوق القبر ،ويتلو نصا لا يسمع منه شيء .
- يظهر رجل ضخم ،يحسبونه مخرج سينما ،ويأمر الجميع ان يستمروا بلا خطأ ، والا اضطروا لاعادة كل شيء من البدء .
- رأس آدمي يتدحرج امامهم ،والرجل يهتف برافو ،بينما هم تحت المظلة يصرخون نزعا . والرجل يطلب من امرأة ورجل يمارسان الحب ،ان يغيرا الوضع "حذار من الملل " .
- الرجل الذى حسبوه مخرجا ،اصبح مطاردا ،بعد ان دخل الشارع رجال ذوو هيئة رسميه . ثم اختفوا جميعا .

وحين يسأل الناس المنتظرون تحت المظلة ،الشاويش ،عمّا جرى ،يطلب بطاقاتهم ، ويحقق معهم عن سبب اجتماعهم . وحين يجيبون ان احدا منهم لا يعرف الآخر ،يصرخ "كذبة

لم تعد تحدي " • ويسدد بندقيته نحوهم ، ويطلق النار بسرعة واحكام ، فيسقطون واحدا في أثر الآخر جثثا هامدة ، الأجساد تحت المظلة ، والرؤوس على الطوار تحت المطر .(١)

وفي اعتقادنا ، أنّ نجيب محفوظ ، يرمز في هذه الأقصوصة ، الى التعقيد الذى يسود العالم ، حتى اذا ما وقف احدهم يحاول فهمه ، سقط صريعا •

وهو بجمعه بين المتناقضات : البدو والخواجات ، الحب والموت ، الرقص وحفر القبور ، الأوامر والمطاردة ، انما يحمل مشكلات العالم كلها • ثم انه يقتل من سألوا كيف ؟ ولماذا ؟ انما يرمز الى انّ الانسان ، سيظل يدفع حياته ثمنا للمعرفة •

وفي رأى غالي شكرى : "انّ مدينة نجيب محفوظ في تحت المظلة هي مدينة جهنمية ، فوضاها نظام ، وجنونها عقل ، ومذابحها سلام • ولهذه المدينة وجهان ، الوجه الانساني العام ، الذى يقصد به العالم كله ، والوجه المحلي الخاص • ولكن العالم في رؤيا نجيب محفوظ ، لا يعني الكون • ومأساة الانسان في رؤيا نجيب محفوظ ، لا تعني اخفاقه الأزلي في كشف سر الأسرار ، وانما عالم نجيب محفوظ هو عالمنا الواقعي المحدود بأزمة ، ينقصها النظام ، وبقوانين ينقصها القانون ." (٢)

ومن المسلّم به ، انّ الفنان ، يستخلص مادته من أرضية اجتماعية ، يعيش احداثها ومشكلاتها • وفي عصرنا ، لم يعد المجتمع هو تلك الرقعة من الأرض ، التي يعيش الانسان عليها • صارت المشكلة الانسانية العامة ، هي مشكلة كل مجتمع • وفي هذا يقول نجيب محفوظ ، "انني في المرحلة الأخيرة ، اتبع الواقعيه الحديدة ، وهذه لا تحتاج الالتزام لمميزات الواقعيه التقليديه ، التي يقصد بها ان تكون صورة من الحياة •• الواقعية الحديدة تتجاوز التفاصيل

---

(١) تحت المظلة — ص ٥ الى ١٦

(٢) شكرى ، غالي — نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة — مجلة مواقف — العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩ — ص ١٦٥ •

والتشخيص الكامل ، وهذا ليس تطورا في الأسلوب .. بل تغيّرا في المضمون . الواقعيه التقليديه ، أساسها الحياة . فأنت تصورها ، وتبين مجراها ، وتستخرج منها اتجاهاتها ، وما قد تتضمنه من رسالات . وتبدأ القصة فيها وتنتهي ، وهي تعتمد على الحياة ، والأحياء ، وملابساتهم ، بكل تفاصيلها . أما في الواقعية الجديدة ، فالباعث على الكتابة ، افكار وانفعالات معينه ، تتجه الى الواقع ، لتجعله وسيلة للتعبير عنها . (١)

---

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٦ ، سنة ١٩٦٢ - ص ٢٧

خاتمـــــــــــة

يعايش نجيب محفوظ ،الموت في قصصه ،كما يعايش الحياة • فالموت ،ظاهرة حياتية ،يمر بها كل انسان • وهو على المستوى الفردى ،أبشع مأساة يتصورها الخيال ،اذ انه لا يعنـــي العدم وحسب ،وانما له ذيول ،وآثار نفسيه ،وعاطفيه ،واجتماعية ،واقتصادية ،تفرش ظلالهـــا في المجتمع ،فتنفعل فيه ،سلبا في أغلب الاحيان ،وايجابا في بعض الاحيان • لكن المـــوت على المستوى العام ـ كما يراه الكاتب ـ ما هو الا جزء من الحياة ،مثل بندول الساعة • فكمـا يولد الانسان لغاية استمرار الحياة ،يموت للغاية ذاتها ،بل ربما لغاية ابعد من الاستمــرار الرتيب ،انه الاستمرار المتطور ،المتطلع الى مزيد من الحرية للانسان ،ومزيد من العدالــة ، ومزيد من الكرامـة •

وفي مرافقتنا لاعمال نجيب محفوظ منذ سنة ١٩٤٦ وحتى سنة ١٩٦٩ ،لاحظنا التطــور في استخدام الكاتب للموت ،من حدث فردى ،اجتماعي مفجع ،الى حدث جماعي ،ميتافيزيقـي ، مؤمل بحياة افضل ،عن طريق المعرفة المتمثلة بالعلم والفـن •

كان الموت يحدث في أعماله الاولى بلا هدف ،لمجرد انه ظاهرة طبيعية حياتية ،تساعـد الكاتب على تجسيد الاحداث بواقعية طبيعية • ولكن في اعماله اللاحقه ،وبدءا من " أولاد حارتنا " ،أصبح الموت يحدث لهدف • اصبح الانسان عنده ،يدفع حياته ،ثمنا لاجتـــــلاء أسرار الكون ،وفض مكـنوناته • وأصبح البحث الدؤوب عن العدالة الكونيه المطلقة ،والحريـــة الانسانية المطلقة ،الشغـل الشـاغل لابطـال " أولاد حارتنا " ، و " اللـص والكـلاب " ، و " الطريق " ، و " الشحاذ " ، وتلك الاقاصيص القصيرة في مجموعات " بيت سيء السمعـــة " ، و " خمارة القط الاسـود " ، و " تحت المظلة " •

-- -- -- -- -- -- -- --

المصادر

مؤلفات نجيب محفوظ :

١ – همس الجفون – دار مصر للطباعة – ١٩٦٦
٢ – خان الخليلي – " " " – ١٩٦٥
٣ – زقاق المدق – " " " – ١٩٦٥
٤ – السّراب – " " " – ١٩٦٦
٥ – بداية ونهاية – " " " – ١٩٦٧
٦ – بين القصرين – " " " – ١٩٦٦
٧ – قصر الشوق – " " " – ١٩٦٦
٨ – السكريه – " " " – ١٩٦٧
٩ – اللص والكلاب – " " " – ١٩٦٦
١٠ – السمّان والخريف – " " " – ١٩٦٧
١١ – الطريق – " " " – ١٩٦٥
١٢ – بيت سيء السمعة – " " " – ١٩٦٦
١٣ – الشحاذ – " " " – ١٩٦٦
١٤ – ثرثرة فوق النيل – " " " – ١٩٦٧
١٥ – ميرامار – " " " – ١٩٦٦
١٦ – أولاد حارتنا – دار الآداب ببيروت – ١٩٦٧
١٧ – خمارة القط الأسود – دار مصر للطباعة – ١٩٦٨
١٨ – تحت المظلة – " " " – ١٩٦٨

المراجـــــــع

I

١ ـ شكرى ،غالي ـ المنتمـــي ـ الطبعة الأولى ١٩٦٤ ـ مكـتبة الزنــــارى

II

٢ ـ حافظ ، صبـري ـ الاتجاه الروائي عند نجيب محفوظ ـ مجلة الآداب ،ع١١ ـ بيروت ١٩٦٣

٣ ـ خراط ، أد وار ـ عالم نجيب محفـوظ ـ مجلة المجلة ،ع ٧٣ ـ القاهـــــرة ١٩٦٣

٤ ـ خشبه ،سامـــي ـ شخصيات من ادب المقاومـة ـ مجلة الآداب ،ع ٦ ـ بيـروت ١٩٦٨

٥ ـ الزيات ،لطيفة ،القط عبدالقادر ـ عياد ، شـــكرى ـ ندوة حول ثرثرة فوق النيل ـ مجلة الآداب ،ع ١٠ ـ بيـــروت ١٩٦٦

٦ ـ شكرى ،غالـــي ـ نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة ـ مجلة مواقف ،ع ٥ ـ بيروت ١٩٦٩

٧ ـ شوشه ،فـاروق ـ مع الأدباء ،نجيب محفوظ ـ مجلة الآداب ،ع ٦ ـ بيـروت ١٩٦٠

٨ ـ صالح ،احمدعباس ـ قراءة جديدة لنجيب محفوظ ـ مجلة الكاتب ،ع ٥٦ ـ القاهـرة ١٩٦٥ (مقدمــــة)

٩ ـ صالح ،احمدعباس ـ قراءة جديدة لنجيب محفوظ ـ مجلة الكاتب ،ع ٥٧ ـ القاهـرة ١٩٦٥ (الموقف التراجيدى)

١٠ـ صالح ،احمدعباس ـ قراءة جديدة لنجيب محفوظ ـ مجلة الكاتب ،ع ٥٩ ـ القاهـرة ١٩٦٦ (المشكلة الميتافيزيقية)

١١ـ صالح ،احمدعباس ـ قراءة جديدة لنجيب محفوظ ـ مجلة الكاتب ،ع ٦١ ـ القاهـرة ١٩٦٦ (المشكلة الميتافيزيقية)

١٢ـ عبدالظاهر،محمود ـ النهاية في بداية ونهايــة ـ مجلة الآداب ،ع ١١ ـ بيـروت ١٩٦٠

١٣ـ عطيه ،احمد محمد ـ نجيب محفوظ وطريق الثورة ـ مجلة الآداب ،ع ٥ ـ بيـروت ١٩٦٧

١٤ـ محفوظ ،نجيـب ـ الأدب ،الحرية ،الثـورة ـ مجلة مواقـف ،ع ١ ـ بيـروت ١٩٦٨

١٥ـ محفوظ ،نجيـب ـ ملاحظات على المشكلــــة الميتافيزيقيــــة ـ مجلة الكاتـب،ع ٦٠ ـ القاهرة ١٩٦٦

III

16 - Durkheim, Emile - Suicide - A Free Press Paperbook, 1966

17 - Hendin , Herbert - Suicide and Scandinavia - A Doubleday Anchor Book, 1965 .